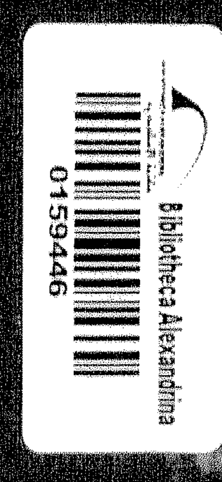


دكتور عبد القادر حسين
كلية البنات الإسلامية - جامعة الأزهر



دار الشروق




فَنّ
البَدِيع

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠٦ برقياً: داشروق تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ ٧٧٥٧٨٨ برقياً: شروق تلكس: 93091 SHROK UN



دكتور عبد القادر حسين
كلية البنات الإسلامية - جامعة الأزهر

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

احتل البديع قديماً مكانة مرموقة عند النقاد والبلاغيين ؛ لما رأوا فيه من جمال يضفيه على العبارة النثرية ، أو القصيدة الشعرية ، كما وجدوا ألواناً من البديع تزخر بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فحفلوا به ، وانجذبوا إليه في توشية أشعارهم وتزيين خطبهم دون كلفة أو قصد ، فتسنم ذروة البلاغة ، حتى عده قوم من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ؛ لما له من أثر في جلال المعاني وجمال الألفاظ . ولكن الشعراء في عصر التجديد فتنوا به وأفرطوا فيه ومنحوه كل اهتمامهم ، سواء كان المعنى يفتقر إليه أو يستغني عنه ، فوقعوا في كثير من العيوب التي أدى إليها التكلف والتعسف . وبدلاً من أن يكون البديع وسيلة لتحلية الألفاظ وتحسينها ، أو طريقاً لكشف المعاني وإبرازها ، صار مسلكاً وعراً يؤدي إلى الإغراب والتعمية ، أو الإفساد والعقم .

ونسج أهل الشعر والنظم على هذا المنوال ، وأضاف العلماء إلى ألوان البديع ألواناً تعد بالمئات حين أطلقوا على كل معنى إسماً من أسماء البديع ، فانحرف عن مساره ، وأصبح عبئاً ثقيلاً في نظر النقاد المحدثين يجب التخفف منه ؛ بل التخلّي عنه والتخلص منه .

والحق أن البديع له مكانته المرموقة التي ظفر بها عند النقاد الأقدمين ، إذا أحسن استخدامه وجاء عفواً بلا تكلف .

وأرى أن العلة في فساد البديع التي ظهرت في العصور المتأخرة لا ترجع إلى البديع ذاته ، وإنما ترجع إلى سوء استخدام الشعراء لألوانه والإفراط فيها ، حتى صار البديع عندهم مطمحاً لا يعدلون عنه ، ولا يرجون سواه . وهذا ما أثبتناه في الباب الأول من الكتاب .

أما الباب الثاني فقد عكفت فيه على ذكر المحسنات البديعية ، مستشهداً لكل محسن بأمثلة غزيرة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعيون الشعر ، حتى يتبين بوضوح أمام الأبصار أن البديع دون ريب قيمة جمالية كبرى ، لا تخطئها الأذن المرهفة ، ولا يغفل عنها الوجدان الصادق .

دكتور عبد القادر حسين

مدينة نصر ١٠/٥/١٩٨٢

الباب الأول

البديع عند النقاد



البديع عند النقّاد

١

إن لغتنا العربية – وخاصة عندما تصاغ في صورة شعرية – تتميز بالجمال والكمال ، وتمثل قمة الابداع اللغوي ؛ لما تحويه من غنى عظيم في مفرداتها ، وإتقان محكم في تراكيبها ، وزخرف أخّاذ في أشكالها ، وجمال موسيقي في جرسها .

السجع في النثر ، والقافية في الشعر ، والفواصل في القرآن ، تنبئ عن التماثل بين الكلمات ، والمشاكلة بين الألفاظ . هذا التماثل في الألفاظ ، والانسجام في العبارات يشهد بموسيقية اللغة ، ويدل على جمالها الأكيد .

وأبرز ما ينبئك عن جمال اللغة العربية وموسيقيّتها ما فيها من ألوان بديعية معنوية أو لفظية ، عن طريق الكلمة وأختها ، أو الكلمة وضدها في سياق واحد ، تلحظ الأضداد في الطباق والمقابلة ، كما تلحظ المماثلة في الجناس والمشاكلة ، في سياق ينساب في سلاسة لا يشوبه تنافر ، ولا يعتريه اضطراب .

إن عبقرية العرب تتمثل في لغتهم وأساليبهم . الجاحظ يصف لغة العرب ، وحديث الأعراب مزهوا فيقول : « ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء ، والعلماء البلغاء »[1] .

وحين أراد العرب أن يفاخروا بعروبتهم في مواجهة الشعوبية ، ويتغنوا بأمجادهم ، عثروا على ضالتهم في الألفاظ فرصدوها ، وفي الأشعار فجمعوها .

---

(١) البيان والتبيين   الجاحظ ١٤٤/١ ط الخانجي .

فن القول ، وجمال النطق ، وحسن العبارة ، يشرف به العربي ، فيتبوأ المكانة المرموقة ، ويفتح الطريق أمامه للمال والجاه ، وتقبل عليه الدنيا بعزها وسلطانها . ولحن القول ، وسوء النطق ، ورداءة الصياغة ، تصكّ المسامع ، فيهون أمر المتكلم ، وتوصد الأبواب دونه فلا تقضي حاجته .

عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل يهتز طرباً لنطق جميل ، ويعبس وجهاً للحن بغيض ، فيجود في الأولى التذاذاً بما يسمع ، ويمسك في الثانية ازدراء لما يقال : « إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن ، فأرده عنها ، وكأني أقضم حب الرمان الحامض ؛ لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب ، فأجيبه إليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه »[1] والمراد بالإعراب هنا ليست قواعد النحو فحسب ؛ بل هو الافصاح الذي يؤدي إلى لذة السامع لما يقال .

ليس هذا شأن عمر بن عبد العزيز وحده ، وإنما هو موقف العربي على إطلاقه ، يتذوق ألفاظ اللغة وتراكيبها ، ويفتن بجمالها وسحرها ، فكلما حلي الكلام وعذب ، التصق بالأسماع ، واتصل بالقلوب ، وخصوصاً إذا ترجم المعنى بلفظ شريف ، وعبر عنه بكلام رشيق .

ومن ثم كان لزاما على العربي أن يدقق في اختيار ألفاظه ، وأن يتأنق في تركيب عباراته ، وأن يخلع عليها من الحسن ما يرفع من شأنها ويعلي من قدرها ، فنراه يردد النظر في الكلام بعد أن يفرغ منه ، ويشرع في تهذيبه وتنقيحه ، نظماً كان أو نثراً ، فيغير ما يجب تغييره ، ويصلح ما يتعين إصلاحه ، ويطرح ما يتصف بالغلظة والغرابة ، فإذا وصف كلامه بالمهذب المنقح ، علت رتبته ، وإن كانت معانيه غير مبتكرة .

زهير بن أبي سلمى كان معروفاً بالتنقيح والتهذيب ، وله قصائد تعرف بالحوليات ، « فقد روى أنه كان يعمل القصيدة في شهر واحد ، وينقحها ويهذبها

---

(١) تجديد الفكر العربي د / زكي نجيب محمود ص ٢٣٢ ط دار الشروق .

في أحد عشر شهراً »[1] ، لا ليضمن سلامتها من العيب فحسب ؛ بل ليخلع عليها الحسن ، فتبدو في أجمل صورة وأبدع مثال .

كما يروى عن الفرزدق انه كان يمر عليه زمان وقلع ضرس من أضراسه أهون عليه من قول بيت واحد من الشعر ، ويحذر من تقصير الألفاظ ، وينصح بتوخي حسن النسق عند التهذيب ، حتى يكون الكلام آخذاً بعضه بأعناق بعض ، ويدعو إلى تكرار التهذيب ، ومعاودة التنقيح ، وإمعان النظر ، فإذا تأبّى عليك لفظ ، فاتركه حتى يأتيك عفواً ، واذا جمحت بك عبارة ، فدعها حتى تنقاد إليك طوعاً .

وحسن النسق من محاسن الكلام ، وهو : أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر ، والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً وتكون جملها ومفرداتها متسقة متوالية ، اذا أفرد منها البيت قام بنفسه ، واستقل معناه بلفظه ، كقول شرف الدين القيرواني :

جاور عليّاً ، ولا تحفل بحادثة	إذا ادّرعت فلا تسأل عن الأسَل[2]
سل عنه ،وانطق به ، وانظر إليه ، تجدْ	ملءَ المسامع ، والأفواه ، والمقلِ

فالحظ حسن النسق ، واستيعاب هذا التقسيم ، ومراعاة النظير بين كلمات المسامع والأفواه والمقل ، وكلها تدخل تحت ما يسمى بعلم البديع .

٢

البديع ليس ترفا في الأسلوب الأدبي ، أو حلية تكون بمثابة الفضول التي يستغنى عنها ، حتى يكون مكانه في المؤخرة من عناصر العمل الفني ، ولا هو يأتي بعد استيفاء البلاغة لعلمي المعاني والبيان ؛ بل منزلته لا تقل شأناً عنهما ، وأستميح القارئ العذر إذا قلت : إن مرتبته في المقدمة منهما ، لأني أخشى أن أتهم بسوق الكلام دون دليل .

(١) خزانه الأدب ابن حجة الحموي ص ٢٣٦ ط ١ .

(٢) ادرعت : غذت في المسير وأظلمت ، والأسل : الرماح .

وليس الحديث هنا بالطبع عن كل ما ذكره علماء البديع من محسنات ، فكثير منها لا يستحق الذكر ، وكثير منها طرحه أفضل من الإبقاء عليه – كما سنوضح فيما بعد – وكثير منها يجني على فن القول ، فيستغلق بسببه المعنى ، وتضيع فيه البهجة ، خاصة اذا وصم بالتكلف وعشوة التعسف ، فيقتسر في الكلام اقتساراً . ليس هذا هو المراد بالبديع الذي عرفه المتقدمون من العلماء ، وإنما عرفوا البديع الذي يأتي موضعه ؛ ليقوم بدوره في أداء المعنى ، فيقف جنباً إلى جنب مع الصور البيانية ، وترتيب مواضع الكلمات .

القرآن فيه كثير من صنوف البديع : كالجناس ، والطباق ، والمقابلة ، واللف والنشر ، والعكس والتبديل ، وغيرها مما يعرفه دارسو البلاغة ، هذه الأنواع البديعية لم تكن فضولاً من القول ، ولم تأت لمجرد الزينة ، وإنما دعاها المعنى ، دعاها دون غيرها من الألفاظ ، فاذا استقرت في مواضعها ، كان للمعنى جلاء وبياناً ، وللكلام فضلاً وتأثيراً ، وأمثلة هذه المحسنات البديعية من القرآن غنية عن الذكر والبيان .

صاحب الطراز (ت ٧٤٩ هـ) يدرك قيمة البديع ومنزلته بين علوم البلاغة ، فيجعله رحيق علمي المعاني والبيان الذي تتركز فيه الحلاوة ، ويتجمع فيه السكر ، فهو خلاصة الخلاصة ، وصفو الصفو ، يستهل حديثه عن علم البديع فيقول : « أعلم أن هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع التراكيب ، ولا يكون واقعاً في المفردات ، وهو خلاصة علمي المعاني والبيان ، ومصاص سكرهما ... وعلم البديع هو تابع للفصاحة والبلاغة ، فاذن هو صفو الصفو ، وخلاص الخلاص ، وبيان ذلك : هو أن العلوم الأدبية بالاضافة إلى حاجته إليها ، وترتبه عليها على خمس مرات ، كل واحدة منها أخص من الأخرى ، وهو الغاية التي تنتهي إليه كلها »[1] .

ويعني بالعلوم الأدبية الخمسة :

علم اللغة ، وعلم التصريف ، وعلم الإعراب ، وعلم المعاني ، وعلم البيان .

---

(١) الطراز العلوي ٣٤٧/٣ ط المقتطف .

فكل منها يأتي في المرتبة التي تعلو سابقه ؛ لخصوصيته يفتقدها الأول ، فاذا انتهينا إلى البديع - وهو ما لا نصل إليه إلا بعد إحراز ما سلف من العلوم الأدبية - حزنا خلاصتها وصفوها ونقاءها ، فهي : - العلوم الأدبية الخمسة - وصلة إلى البديع ، وهو منتهى أمرها وغاية شوطها ، اذ (ليس وراء عبادان قرية) .

٣

من هذا المنطلق لمنزلة البديع ، تفنن الشعراء في صيغ أشعارهم بالصبغة البديعية ، كما تفنن الكتاب في توشية عباراتهم بالزينة اللفظية ، ليقولوا شعراً يطرب ويعجب ، أو يكتبوا نثراً يبهج ويخلب ، كانت هذه غايتهم : أن يقولوا كلاماً حسناً بديعاً في أسلوب شائق جميل ، يأتي عفواً بلا تكلّف ، فاجتمعت لديهم صور بيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، يقف بإزائها محسنات بديعية من جناس وطباق ومقابلة ، بعضها يؤازر بعضاً ، فأطلق عليهم النقاد شعراء البديع ، كما أطلقوا على أداتهم في التعبير : اسم البديع ، وأصبحت السمة المميزة لعصر التجديد الذي استهله بشار ، ومسلم ، وأبو نواس ، ومن بعدهم أبو تمام ، هي البديع الذي يشمل الصور البيانية والمحسنات البديعية دون تفرقة بين هذه وتلك ، فكلاهما بديع ، وكلاهما يخلع الحسن على الألفاظ الشعرية ومعانيها ، فتغير بذلك وجه الشعر تغييراً كاملاً .

وطبيعي أن هذا البديع لم ينشأ في هذا العصر من لا شيء ، وإنما كان معروفاً من قبل ، يأتي عفواً بلا تكلف ، وقد أورد ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) نماذج مختلفة من هذا الأسلوب البديعي[١] القائم على تزيين الشعر بالمحسنات الكثيرة ، لا من أقوال الشعراء في العصر العباسي الذين حملوا لواء التجديد في الشعر ؛ بل يعرض أيضاً نماذج من الشعر الجاهلي والإسلامي وأقوال الصحابة ؛ بل من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، مما يدل على أن البديع في حدّ ذاته - سواء قلّ أو كثر - ليس فضولاً يمكن الاستغناء عنه ، ما دام يستعمل في موضعه اللائق به من الكلام ، أما إذا تكلفه القائل واقتسره اقتساراً ، سواء كان قليلاً أو

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز باب التجنيس على سبيل المثال ط دار العهد الجديد .

كثيراً ، فهو حينئذ لا يشوّه جمال الكلام فحسب ؛ وإنما أيضاً يفسد المعنى ، ويصيب التركيب بالخلل .

وحين أقول : إن البديع لا يشين الكلام إذا استعمل قلة أو كثرة لا ألقي الكلام على عواهنه ، فأنا أحيلك على باب الإبداع ، وما قاله ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) في كتابه « بديع القرآن » عن قوله تعالى : (وقيل يا أرض أبلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقْلِعِي وغيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمْرُ واستوتْ على الجُودِيِّ وقِيلَ بُعداً للقوم الظالمين) سورة هود ٤٤ قال : إنه استخرج من هذه الآية واحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها : سبع عشرة لفظة[1] ، وذكر منها المناسبة التامة في ابلعي وأقلعي ، والمطابقة اللفظية في ذكر السماء والأرض ، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حال نقصه ، وحسن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولا ، والتسهيم ؛ لأن من أول الآية إلى قوله تعالى : (وأقلعي) يقتضي آخرها ، والانسجام ، وهو : تحدّر الكلام بسهولة وعذوبة سبك ، مع جزالة اللفظ ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء .

ويعقب على ذلك بأن في كل لفظة بديعا وبديعين ؛ لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت واحداً وعشرين ضرباً من البلاغة ، سوى ما يتعدد من ضروبها . وغني عن البيان أن مفهوم البديع عنده كلمة تشمل علوم البلاغة كلها من معان وبيان وبديع .

وليس ابن أبي الأصبع وحده الذي استخرج هذه الكثرة من ضروب البديع في الآية القرآنية ، فكل من تناول هذه الآية من علماء البلاغة ألقى فيها بدلو ، فقد وصف الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) هذه الآية فقال : « إن علماء البيان استفصحوا هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم »[2] .

وهذا هو النويري (ت ٧٣٣ هـ) يتحدث عن الإبداع وهو : «أن يؤتي في البيت الواحد من الشعر ، أو القرينة الواحدة من النثر بعدة ضروب من البديع

---

(١) بديع القرآن ابن أبي الأصبع المصري ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ط نهضة مصر .

(٢) الكشاف ٣١١/٢ ط الاستقامة .

بحسب عدد كلماته أو جمله ، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع ، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة ، فليس بإبداع »[1] فهو ينقل كلام ابن أبي الأصبع الذي ذكرناه سابقاً في الآية القرآنية .

فالحمد أو الذم قد يصحب الإفراط أو الاقتصاد في طلب البديع ، فليس في الإفراط ذمّ مطلق ، ولا في الاقتصاد حمد دائم ؛ وإنما المعيار بنهوض الطبع بما يُحمّل به من جهة ، أو الجري وراءه واقتناصه لمجرد إظهار البراعة والغرابة من جهة أخرى .

إذن فالكثرة التي تفسد البديع هي الكثرة المتكلفة التي يلجأ إليها صاحبها ليريك مدى مقدرته في رصف المحسنات بعضها بجوار بعض ، وإن لم تحمل في وضعها من بنية الكلام شيئاً ذا بال ، فنشعر أننا إزاء شيء غثّ لا فائدة فيه .

وليس هذا التكلف – أياًّ كانت صوره – مفسداً للبديع وحده ؛ بل هو مفسد للبيان أيضا ، وما صور التعقيد المعنوي « والمعاظلة : وهي فاحش الاستعارة »[2] إلا من هذا القبيل .

ومفسد للمعاني أيضاً حين نقدم أو نؤخر في غير موجب للتقديم أو التأخير فيؤدي إلى انغلاق المعنى ، كما هو الشأن في التعقيد اللفظي . ومفسد للأدب كله ؛ لأنه موات ألفاظ ليس وراءها حياة .

إن البديع الذي بدأ على يد ابن المعتز في ثمانية عشر لوناً : خمسة من البديع وثلاثة عشر من المحسنات ، تضم في جملتها صور البيان ، زاد زيادة مفرطة حتى بلغ على يد ابن أبي الأصبع مائة وستة وعشرين لوناً في كتابه « تحرير التحبير » بعد أن أضاف إليها بعض أبواب المعاني ، ولا أحدثك عن البديعيات التي يتضمن كل بيت منها محسناً من محسنات البديع ، وإزاء كل بيت المحسّن الذي يشير إليه ، كبديعية صفيّ الدين الحلّي (ت ٧٥٠ هـ) التي تضمنت مائة وخمسين محسّناً ، ولا عن بديعية عز الدين الموصلي (ت ٧٨٩ هـ) الذي زاد على سابقه

---

(١) نهاية الأرب النويري ١٧٥/٧ – ٧٧ ط دار الكتب .
(٢) الصناعتين أبو هلال العسكري ١٦٣ ط عيسى الحلبي .

شيئاً من اختراعه ، ولا عن بديعية ابن حجّة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) الذي صنف عليها شرحاً مطولاً ، وغيرهم « من الذين وجدوا في كل صيغة بها شيئاً من الغرابة محسّنا بديعياً ، أطلقوا عليه إسماً من الأسماء ، مما أحال الكلام في البديع ومحسناته إلى صورة غثّة ضررها أكثر من نفعها ؛ لأنها خلطت بديعا مزيفاً كثيراً بالبديع الحقيقي ؛ بل إن هذا البديع المزيف هو الذي كان يستأثر باهتمامهم »[١] .

٤

إذا عدنا مرة أخرى إلى ما كانت عليه منزلة البديع عند الأدباء والنقاد في العصر العباسي نرى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يجعله مقصوراً على العرب ويعدّه من خصائص العربية ، وبسببه فاقت لغة العرب غيرها من اللغات ، وعلى هذا الدرب سار ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في عدّه المجاز من خصائص العربية - وإن كان يعني بالمجاز طرق القول ومآخذه من بيان ومعان ، وخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر - وبسبب هذا المجاز الذي تتميز به العربية لا يقدر أحد من المترجمين نقل القرآن إلى لغة أخرى ، بخلاف غيره من الكتب السماوية التي يمكن ترجمتها ، وعلل ذلك بأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب[٢] . فكان أقل شططا من الجاحظ حين زعم أن البديع مقصور على العرب ، ومهما يكن من شيء فان الشاعر إذا ضمّن شعره شيئاً من البديع ، استحق الثناء ، وحاز قصب السبق ، فالبديع عند الجاحظ « مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأرْبَتْ على كل لسان ، والراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتّابي يذهب شعره في البديع »[٣] فالبديع - إذن - عند الجاحظ من مميزات الشعر ، وليس من سؤاته ، وهو يثني على أصحاب البديع ، ولا ينتقص من قدرهم ، وهذا يؤكد أن البديع في ذاته مرغوب إذا أحسن استخدامه ؛ لأنه يعجب السمع ويستهوي النفس ، ويصبح مصدر جمال قوي رائع . فكانت هذه الكثرة في

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ انظر ص ٣٥٨ ٣٦٧ د / شوقي ضيف دار المعارف .
(٢) تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ص ١٦ ط عيسى الحلبي .
(٣) البيان والتبيين ٤/٥٥ .

استخدام المحسنات البديعية سبباً لعناية النقاد بالبديع ، ومثار الجدل حول أدب المحدثين والقدامى .

فالمحدثون يستخدمون البديع الذي سبقهم إلى استخدامه القدماء ، ولكن المحدثين أكثروا منه منذ مسلم بن الوليد ، وبشار ، وأبي نواس ، إلى أن أفرط في استخدامه أبو تمام ، حتى صار شعره مثار خصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وذلك « أن جلّ الأدباء والنقاد رأوا في الافتنان في الحلْية اللفظية المجال الأكبر للتجديد ؛ إيماناً منهم بأن الأولين استغرقوا المعاني ، أو أتوا على معظمها ، ولم يتركوا إلا ما استهين به أو صعب الوصول إليه ، فلم يبق أمام المحدثين شيء يولعوا به إلا البديع والحلية اللفظية ، فكان الإبداع والإغراب منحصراً في هـذا الميدان ، وتبعهم النقاد ما بين مفتون به وساخط عليه »[1] .

والجديد شيء مألوف في تاريخ الأدب ، فلكل عصر أدبي مميزاته وخصائصه ، ولكل شاعر سماته وملامحه ، فإذا استنفدت قيم جمالية راهنة ، ظهرت قيمة جمالية جديدة يحملها لنا أديب أو شاعر ، وليس ضرورياً أن يكون الجديد أفضل من القديم ، ولكن لا بد من الجديد الذي يأتي في أثر القديم ، هذا الجديد الذي أصبح شغل الأدباء والشعراء والنقاد في العصر العباسي ، حتى أصبح السمة المميزة لمدرسة التجديد أو مدرسة البديع . « فعندما انتهى قرض الشعر إلى المحدثين ورأوا افتتان الناس بالبديع واستغرابهم له ، أولعوا باستخدامه وإيراده ؛ إظهاراً للاقتدار ، وذهاباً على الأغراب ، فمن مفرط ومقتصد ، ومحمود فيما يأتيه ومذموم ، على حسب نهوض الطبع به ، أو لكمال البراعة والالتذاذ بالغرابة »[2] .

٥

قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) يرى أن ألوان البديع هي البلاغة ، وفي ذروة الحسن منها . « وأحسن البلاغة : الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ، والاستقامة ، وعكس ما نظم من بناء ، والاستعارة ، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام ، وتصحيح

---

(١) الوساطه القاضي الجرجاني ص ٢٠٨ ط القاهرة .

(٢) مقدمة شرح ديوان الحماسة المرزوقي ـ ص ٩٩ ط تونس .

المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم .. والمبالغة في الرصف بتكرير الوصف ، وتكافؤ المعاني في المقابلة ، والتوازي ، وارداف اللواحق ، وتمثيل المعاني »[1] .

والحق أن كلمة البديع في ذلك العصر لم تكن قد اتخذت المعنى الاصطلاحي الذي ساد فيما بعد واستقر الرأي عليه في كتب المتأخرين عند السكاكي والخطيب وأصحاب الشروح ، وأصبح ملازماً لها حتى اليوم ، وإنما كانت تعني عدة أشياء منها : الإكثار من استخدام الصورة ، والإكثار من استخدام المحسنات ، والميل بالمعاني القديمة إلى وجه جديد من الاستعمال مغاير لما جرى عليه العرف . فكلمة البديع تعني التجديد بصفة عامة ، سواء أكان التجديد في الصياغة أو التجديد في المعاني بقلبها أو تغييرها أو تحسينها .

هذه الوجوه البديعية التي أجملها قدامة يتمثل فيها الإيقاع الصوتي الذي يكسب فن القول جمالاً ومتعة ، ويضفي عليه الرونق والبهجة ، لما فيه من تساوي أجزاء الكلام ، وتوازي المقاطع الصوتية ، وكأنها من جنس واحد ، كقول أبي المُثَلَّم :[2]

لـو كـان للـدهـر مـالٌ كـان مُتْلِـدَهُ ... لكان للدهـر صخـرٌ ، مالَ قُنْيان
آبـى الهضيمةِ ، نـاب بالعظيمـة ، مِتْـ ... لافُ الكـريمة ، جَلد غيرُ ثُنْيان
حامي الحقيقـة ، نسّالُ الـوديقة ، مِعْـ ... ـتـاق الـوسيقـة لاسِقْـط ولا وان
هبّــاط أوديــة ، حمّــال ألْـويــــة ... شهّـاد أنـديـة ، سِرحـان فِتيــان
يعطيك مـا لا تـكـاد النفس تُـرسلُـه ... مـن التِلاد وهـوبٌ غيرُ منّـــان

فأجزاء البيت متساوية مسجوعة ، راعى فيها الشاعر التوازن الصوتي بين الكلمة وأختها ، « وأكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى ، وإنما يحسن إذا اتفق في البيت موضع يليق به ، فإنه ليس في كل موضع يحسن ، ومن الشعراء القدماء والمحدثين من قد نظم شعره كله ووالى بين أبيات كثيرة منه ، منهم أبو صخر الهذلي ، فإنه أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه إنه غير متكلف .. والرسول صلى الله عليه وسلم كان يتوخى في كلامه مثل ذلك ، ويورد

---

(١) جواهر الألفاظ ص ٣ ط محيي الدين - قدامه .

(٢) نقد الشعر ص ٤٩ قدامة ط الخانجي .

قدامة بعض الأحاديث النبوية التي يذهب فيها إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضاً ، منها : (خَيْرُ المال سِكّةٌ مأْبورة ومُهْرةٌ مأمورة) فقال : مأمورة من أجل مأبورة ، والقياس : مؤمّرة ، وإنما عدل عن القياس لاتباع الكلمة أختها في الوزن . وإذا كان هذا مقصوداً في الكلام المنثور ، فاستعماله في الشعر الموزون أقمن وأحسن[1] .

وفي حديثه عن التكافؤ[2] ، ويعني به كل صور التقابل ، نراه ينحى ناحية عملية ؛ ليبين أثره في تجديد الشعر ، ويسوق بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبّه لها عُمراً ثم نمْ

« فنبه ونم » تكافؤ ، وله أثر في تجديد الشعر قوي ، فإنه لو قال مثلاً : « فجرد لها عمرا » لم يكن لهذه اللفظة من الموقع مع نم ما لنبّه .

ومثل : « كدَر الجماعة خير من صفْو الفُرقة » ؛ لأنه لما قال : كدر ، قال : صفو ، ولما قال : الجماعة ، قال : الفرقة .

هذه المقابلات قد نظمت بحيث يوضع بعضها بإزاء بعض ، وتتوازن كل كلمة مع أختها ، فيكون للكلام وقع في السمع وحلاوة في النفس ، فإذا تجرد الكلام من هذا التوازن الحادث من المطابقات ، تجرد من الجودة ، وإن كان صحيحاً . فابن دريد حين ينشد لبعض الشعراء :

طرقتك عزّة من مزارٍ نازحٍ يا حسن زائرة وبُعْد مزار

نلحظ عدم التطابق بين « حسن زائرة وبعد مزار » مما أفضى إلى نفرة الإيقاع وعدم الجودة ، « يقول ابن دريد : لو قال : « يا قرب زائرة وبعد مزار » لكان أجود ، وكذلك هو لتضمنه الطباق »[3] .

---

(١) انظر نقد الشعر ص ٤٦ - ٥٠ .

(٢) انظر نقد الشعر ص ١٤٦ وجواهر الألفاظ ص ٧ .

(٣) الصناعتين العسكري - ص ١٣٩ ط عيسى الحلبي .

وكلما تعددت المقابلات بين شطري البيت الواحد ، زاد الإعجاب به ؛ لحسن جرسه في السمع ، فإذا اكتملت المقابلات ،اكتمل الحسن ؛ لتماثل الإيقاع بين جميع أجزاء الشطرتين ، فالناس كانوا يعجبون ببيت البحتري :

وأمّة كان قبحُ الجور يُسخطها دهراً فأصبح حسنُ العدل يُرضيها

لأنه جمع بين ثلاث مقابلات ، حتى جاء أبو الطيب فزاد عليه مع رشاقة الصنعة بقوله :

أزورهم وسوادُ الليل يَشفع لي وأنثني وبياضُ الصبح يُغري بي [1]

وقد أتى المحدثون من التكافؤ بأشياء كثيرة ، وهو مع أهل الحصيل والرويّة في الشعر ، أولى منه بطباع القائلين على الهاجس بحسب ما يسمح به الخاطر .

٦

مدرسة التجديد وعلى رأسها أبو تمام ، كانت صاحبة مذهب في الشعر ، ولها أسلوب فريد تميزت به عن غيرها ، ولسنا بصدد تقييم هذا الأسلوب وبيان ما فيه من الجودة أو الرداءة ، ولكن هذه المدرسة لم تحاول التجديد في مضمون الشعر وجوهره ، وإنما حاولت التجديد فيما يسمى بالبديع ، أي في طريقة الصياغة الشعرية ، فتمردت على المألوف ، وأفرطت في توشية الشعر بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ، فخرجت عن مدرسة عمود الشعر ، التي يمثلها البحتري ، وأدت هذه المدرسة إلى ظهور علم جديد ، هو علم البديع على يد ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) .

وكلمة عمود الشعر ما تزال مبهمة على كثير من القراء ؛ لعدم تحديد معناها في الأذهان ، رغم أن النقاد يرون معيار الجودة في القصيدة الشعرية رهْناً بما يتحقق من ذلك العمود . فما معنى عمود الشعر ؟

إنه محصلة لسبع خصائص يجب أن تتوافر ، وبقدر توافرها يكون نصيب

(١) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه — الثعالبي — ص ٣١ ، ٣٢ ط ١٩١٥ .

الشاعر من التقدم والإحسان . وهي كما قال المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) :

« أن يكون المعنى صحيحاً ، وأن يكون اللفظ جزلاً مستقيما ، وأن يكون الوصف صادقاً ، وأن يكون التشبيه قريباً ، وأن تكون الاستعارة مناسبة ، وأن تكون الأجزاء ملتحماً بعضها ببعض ، وأن تجيء القافية متساوقة مع اللفظ والمعنى على صورة طبيعية لا تكلف فيها »[1] .

هذا الخروج عن عمود الشعر هو الذي أثار كبار النقاد ، وعدوه سبباً لطمس المحاسن ، كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، والكلام هنا للقاضي الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) – فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح في غير موضع من شعره .. ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمّله من كل وجه ، وتوصّل إليه بكل سبب (لاحظ هنا تكلف أبي تمام في طلب البديع) ولم يرض بهاتين الخلّتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غثّ ثقيل ، .. فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع ، لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر .. ، فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة .... وتلك حال لا تهتز فيها النفس للاستمتاع بحسن ، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف[2] .

ورغم أن الجرجاني من النقاد الذين يدينون بتفضيل أبي تمام وتقديمه على غيره من الشعراء ، واعتباره قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع ، إلا أنه كان قاضياً يتبع الحق ويتحرى العدل فيما يحكم به ، فالذي يغبطه من أبي تمام أن يراه متكلفاً في اجتلاب المعاني الغامضة ، أو في طلب البديع . فالتكلف في طلب البديع من الأسباب التي تهجّن شعر أبي تمام ، وليس البديع حين يأتي عفوا لا تكلف فيه . « فالتفاضل بين الشعراء عند العرب يكون في الحرص على عمود الشعر ، واستخدام البديع على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة

---

(١) مقدمة شرح ديوان الحماسه المرزوقي – ص ٥٩ – ٧٨ ط تونس .

(٢) الوساطة ص ١٩ ط عيسى الحلبي .

واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط »[1] .

فكما يكون استخدام البديع علة للاساءة والذم ، يكون أيضاً من دواعي الحسن والحمد ، فالعبرة – إذن – في معالجة البديع وطريقة استخدامه ، وليست العلة في البديع نفسه ، فهذا مصيب ، وهذا مخطئ ، وهذا حسن . وهذا رديء .

والآمدي (ت ٣٧٠ هـ) يلحظ أن البحتري يكثر من استعمال البديع في شعره ، إلا أنه لم يفارق عمود الشعر وطريقته المعهودة ، فانفرد بالحسن في العبارة ، والاستقامة في المعنى . « فقد حصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر ، وطريقته المعهودة ، مع ما نجده في شعره من الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وانفرد بحسن العبارة ، وحلاوة اللفظ ، وصحة المعاني ، وحتى وقع الاجماع على استحسان شعره ، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم »[2] .

أما أبو تمام فقد كان يتكلف البديع فيخرج إلى المحال ، ولا تكاد تخلو له قصيدة واحدة يكون فيها مخطئاً أو محيلاً .. أو مفسداً للمعنى الذي يقصده بطلب الطباق ، والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم[3] .

وثمة نص واضح صريح ينقله الآمدى عن ابن مهرويه يبين أن المعيار في قبح البديع أو حسنه إنما مرده إلى التكلف في طلب البديع أو عدم التكلف ، فإذا جاء عفواً غير مستكره ، ضمن لصاحبه التقدم على سائر شعراء عصره : « فإن أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، وإن أبا تمام تبعه فسلك في البديع مسلكه فتحير فيه ، كأنهم يريدون إغراقه في طول طلب الطباق والتجنيس والاستعارات ، وإسرافه في التماس هذه الأبواب وتوشيح شعره بها .. ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ، ولم يوغل فيها ، ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذبة ، ويقتسرها مكارهة ،

---

(١) الوساطة ص ٣٤ ط عيسى الحلبي .

(٢) الموازنه - الآمدي - ١٨/١ ، ١٩ ط دار المعارف .

(٣) الموازنة الآمدي ٥٠/١ .

وتناول ما يسمح به الخاطر .. لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين »[1] .

فأبو تمام كان مفتوناً بالبديع شديد الغرام بالطباق والتجنيس والمماثلة ، يسعى إليها جاهداً ليرصع بها شعره ، ولا يبالي بعد ذلك بشيء ، فيستوي عنده التعبير عن المعنى بلفظ ضعيف أو لفظ قوي ، فكان شأنه شأن من يعمل التطريز في ثوب خلق ، فيتلمس الزخارف والمحسنات ليحلي بها المعاني القديمة المستهلكة والتي دارت على ألسنة الشعراء من سابق الى لاحق . فالكلف في البديع وتتبعه وطغيانه على الأسلوب يطمس معالم المعنى ، أو يخفيه ، أما استعمال الزينة بقدر وفي موضعها ، فلا يزيد وجه الكلام إلا نضارة وحسناً ، والآمدى يفرد عدّة صفحات لما جاء في شعر أبي تمام من قبيح الجناس – وأذكر الجناس على سبيل المثال – فيقول : « واعتمده الطائي ، وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على بعض أمثلته المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى ، لكان قد أتى على الغرض ، وتخلص من العيب »[2] . ثم يعمم الحكم على البديع بالقبح إذا أحاط بالكلام من أقطاره كافة فيقول : «والشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه ، فإن مجاهدة الطبع ، ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة التعمل ... ؛ لأن لكل شيء حداً إذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطاً ، وما وقع الإفراط في شيء إلا شانه ، وأحال إلى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهاءه »[3] .

ومن نافلة القول أن أشير إلى فئة من النقاد أعجبتهم طريقة أبي تمام في طلبه البديع على إطلاقه ، فانتصروا لمدرسة التجديد ولأبي تمام ، واستحسنوا منه البديع ، وعدوه سبباً في إحالة المعنى القديم إلى شيء مستطرف حديث .

يقول الصولي (ت ٣٣٥ هـ) « فلو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة ، لوجب أن يصرف عن أبي تمام ؛ لكثرة بديعه ، واختراعه ، واتكائه على

---

(١) الموازنه ١٣٥/١ .

(٢) الموازنة / ٢٦٧/١ .

(٣) الموازنة / ٢٤٤/١ .

نفسه .. ومتى أخذ معنى زاد عليه ووشحه ببديعه وتمم معناه فكان أحق به »[1]

فإذا كنا نجد قوماً يعيبون على أبي تمام إفراطه في استعمال البديع ، ويتهمونه بالإحالة وإفساد الشعر كالآمدي في الموازنة ، فإننا نرى الصولي في أخبار أبي تمام يدفع عنه هذه التهمة ويبين فضله ؛ لاستعماله البديع في المعاني القديمة المألوفة ، فيحيلها إلى شعر جديد ينسب إلى أبي تمام وحده ، ويبرئ ساحته من تهمة السطو ؛ لأنه أحق به من غيره .

فاستعمال البديع له من النقاد من يؤيده ، وله من يفنده ، ولكن التأييد والتفنيد لم يلمس جوهر البديع وحقيقته ، وإنما لمس التكلف والإفراط فيه دون دواع تستوجب استخدامه من جلاء للمعنى ، أو أنس للنفس . فإذا كان للبديع أثر في النفس ووقع في السمع ، كانت الحاجة إليه أوجب والعدول عنه تقصير . فهذا ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) يوضح لنا أثر السجع في ضرب الأمثال ووقعه في السمع : « ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا ، لذّ لسامعه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديرا باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به ، ولا أنقت لمستمعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجيء به من أجله »[2] .

والمرزوقي (ت ٤٢١ هـ) يرى في توشية الشعر بشيء من البديع مشقة وصعوبة على الشاعر البليغ أكثر مما يراها في الكشف عن المعنى بمختار من اللفظ يسابق فيه الفهم السمع « فمن البلغاء من يقول : فقر الألفاظ وغررها كجواهر العقود ودررها ، فإذا قام بتحسين نظومها ، راق مسموعها ومضبوطها ، فيموج في حواشيها رونق الصفاء لفظاً وتركيباً مما يقبله الفهم ويلتذ به السمع ... ومن البلغاء من ترقى إلى ما هو أشق وأصعب ، فلم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة حتى طلب البديع من الترصيع والتسجيع والتطبيق والتجنيس والعكس والاستعارة ... إلى وجوه أخر تنطق بها الكتب المؤلفة في البديع ، فإني لم أذكر هذا القدر إلا دلائل على أمثالها ،

---

(١) أخبار أبي تمام الصولي ص ٥٣ . ١٠٠ ط ١٩٣٧ .

(٢) الخصائص ابن جني ٢١٦/١ ط دار الكتب .

ولكل مما ذكرته وما لم أذكره رسم من النفوذ والاعتلاء[1] .

وليس ثمة ما يدعو إلى التأكد من البديع ورشاقته إذا أحسن استعماله ، وقبحه وثقله إذا كان متكلفاً متصنعاً من قول الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) حين يعقد مقارنة بين البحتري وأبي تمام[2] ، فكلاهما يستخدم البديع ويفرط فيه ، إلا أنه حسن عند الأول ، قبيح عند الثاني ، وربما أسرف - يقصد أبا تمام - في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها ، حتى استثقل نظمه ، وكان التكلف بارداً ، والتصرف جامداً ، وأما البحتري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ، ويقل التصنع له ، فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنا رشيقاً ، وظريفاً جميلاً ، وتصنعه للمطابق كثير حسن ، وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة ، فلذلك يخرج سليماً من العيب في الأكثر . ثم يصف البديع بأنه باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وأن القرآن لا ينفك عن فنون البلاغة (البديع) وإذا وضع هذا الموضع كان جديراً .

٧

فإذا انتهينا إلى امام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) نراه يصوب بصره إلى المعنى وهو يتناول التجنيس[3] : فالقبيح من الجناس هو الذي لم يزدك على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة . والحسن منه هو الذي يعيد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، لا فرق في هذا الحسن بين الجناس التام والجناس الناقص ، وبهذا المعيار يعد التجنيس من حلى الشعر ومذكوراً في أقسام البديع ، ففضل التجنيس مرهون بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده ، لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن .

ويبدو أن الشعراء في عصر عبد القاهر لشدة ولعهم بالبديع قد أفرطوا في

---

(١) مقدمة ديوان الحماسه للمرزوقي ص ٣٩ - ٤١ .

(٢) إعجاز القرآن   الباقلاني ص ١١٠ ، ١١٢ ط دار المعارف .

(٣) أسرار البلاغة   عبد القاهر الجرجاني - فصل في التجنيس ١١ - ٢٥ ط الاستقامة .

استخدامه ، حتى إن الواحد منهم ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ... كمن ثقّل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها .

وليسمح لي القارئ أن أنقل إليه سطوراً في هذا المعنى عن موقف عبد القاهر من البديع كتبتها منذ ثلاث عشرة سنة في رسالتي عن أثر النحاة في البحث البلاغي[1] : ذكر عبد القاهر ألواناً من البديع دون أن يخوض في جميع الألوان التي كانت معروفة وشائعة عند السابقين مثل : التجنيس ، والسجع ، والتطبيق ، وحسن التعليل ، والتجريد ، والمزاوجة ، والتقسيم ، وخصوصاً التقسيم ثم الجمع . ويرى أن البديع يساعد على فضيلة الكلام حين لا يكون متكلفاً خالياً من الفائدة ، ولا يقصد به غير الزخرف والزينة ، فإذا أتى عفو الخاطر ، أو كان المعنى هو الذي يطلبه ويستدعيه ، فإنه يقرر أنه « يكون أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، بل إنه لو رام تركهما – التجنيس والسجع – إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع ، لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه .. »

والحسن والقبح في البديع عند عبد القاهر ليس مرده الى اللفظ ؛ لأن الألفاظ ليس لها نصيب من الحسن ، وإنما العبرة بالمعنى الذي لا ينشأ إلا عن النظم (الأسلوب) ولذلك فإنه يفرق بين تجنيس قبيح كتجنيس أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السماحةُ فالتوتْ فيه الظنونُ أَمَذهبٌ أم مُذْهَبُ

وتجنيس حسن كتجنيس البستي :

ناظراه فيما جنى ناظراه أَوْ دعاني أمت بما أودعاني

لأن الفائدة ضعفت في الأول ، وقويت في الثاني ، ففضيلة التجنيس لا تتم إلا بنصرة المعنى ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به .

وكما ينكر عبد القاهر التكلف في البديع والشغف به ، فإنه ينكر أن يتطلبه

---

(١) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي – عبد القادر حسين - موقف عبد القاهر من البديع ط نهضة مصر .

المعنى ثم نغفل عنه ذكره ؛ لأن المعنى هو الذي يقود إليه ويستشرف له ، فإهماله في هذه الحالة شبيه بتكلفه حين لا يدعو إليه المعنى ، فيكون تجنياً مستكرهاً وسجعاً نافراً ، فإذا توافرت هذه المحسنات البديعية مع حسن النظم يكون قد قرى الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين .

فالبديع - إذن - عند عبد القاهر لا يستقل باللفظ ، وإنما يذوب داخل النظم ، إلا أنه يضيف إلى جماله جمالاً ، وتزيد به الفضيلة ارتقاء ، فيعمل عمل السحر في الكلام ، فإذا هو النمط العالي ، والباب الأعظم الذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه . انتهى .

وإذا أردنا أن نستشهد بأقوال العلماء من النقاد والبلاغيين في حسن البديع ، لضاق بنا المجال ، وعمدنا إلى الإطالة والتكرار ، وفيما ذكرناه غناء عن كل كلام .

ولكن يكفي أن نحيل القارئ إلى ما قاله الباقلاني في الفصل الذي عقده « في ذكر البديع من الكلام »[1] .

إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟

يعني بذلك البديع على إطلاقه كما ساد في عصره من صور بيانية : كالتشبيه والاستعارة والكناية ، ومحسنات بديعية ، كالتجنيس والمطابقة والمقابلة والموازنة ، والغلو والمبالغة ، ورد العجز على الصدر ، وصحة التقسيم ، والترصيع ، والعكس والتبديل ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وغيرها .

فوجوه البديع كثيرة جداً كما يقول الباقلاني ، ولكنه اقتصر على بعضها فليس من غرضه ذكر جميع أنواع البديع ، ولكنه بعد أن ينتهي من ذكر هذه الوجوه من البديع يعقب على ذلك بقوله :

وقد قدّر مقدّرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي

---

(١) إعجاز القرآن ص ٦٦ ط دار المعارف .

نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، يعني بذلك الرّماني الذي اعتبر البلاغة (البديع) من وجوه إعجاز القرآن[1] .

وليس كذلك عندنا ؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها .

فإلى هذه الغاية استطاع البديع أن يتسنم ذروة البلاغة حتى عدّه قوم أنه من وجوه الإعجاز في القرآن . وانظر إلى أي مدى كان احتفاء العلماء بالبديع ، وإدراكهم لمنزلته التي حفزتهم إلى القول بأنه من دواعي الإعجاز ووجه من وجوهه .

والباقلاني وإن كان يرفض أن يكون البديع - سواء كان صورة بيانية أو محسناً بديعياً - وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ لأن البديع يمكن التوصل إليه بالتدريب والتعود ، إلا أن البديع عنده باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وأن القرآن لا ينفك عن بلاغة العرب ، وإذا وضع في موضعه كان جديراً .

وبعد ، أن الشعر عند العرب صناعة ، ولهذه الصناعة قوانينها التي تتحكم في الشكل والإطار الخارجي ، فتجعل منه شعراً جميلاً أو قبيحاً ، لذلك كان اهتمام العرب بالجمال الشكلي لا يقل عن اهتمامهم بالمحتوى الداخلي ، وحين كان الشعر مرتبطاً بالسمع ، كان اعتماده في الدرجة الأولى على التناسق والتوازن والتماثل والتطابق والتقابل الذي هو سبيل إلى التلاؤم ، والتناظر وغيرها ، مما ينطوي تحت لواء شيء واحد يمكن أن نطلق عليه كلمة الإيقاع الموسيقي ، ألا ترى أن الألفاظ في الأسماع لا يقل وقعها في النفس عن الصور في الأبصار ؟ .

٨

وإذا كان البديع عند النقاد القدامى قد ظفر بهذه الحفاوة البالغة واعتبر دليلاً على كمال البراعة واتقان الصناعة حتى عدّه قوم من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، فقد اختلفت الرؤية عند النقاد والدارسين المعاصرين ؛ لأن الشعر لم يعد يكتب لينشد على الخلفاء في القصور ، أو الجماهير في الأسواق كما كان في

---

(١) النكت في إعجاز القرآن - الرماني - ص ٧٠ ط دار المعارف .

القديم ، وإنما يكتب ليقرأ ، فنأخذ منه حصيلة فكرية ، أو صورة اجتماعية ، أو شحنة انفعالية مما لا يحتاج إلى تزويق أو تجميل . إن الشعر أصبح صورة ترى ، وليس نغماً يسمع ، صوراً تتملاّها العين ، ولا يقف بإزائها السمع ، لذلك نظر النقاد المعاصرين للبديع نظرة استخفاف وازدراء على خلاف نظرتهم لعلمي المعاني والبيان . فالبديع « لا يخرج عن كونه محسنات لفظية عقيمة ، والاهتمام به كان من الأسباب الرئيسية التي حولت مجرى الأدب العربي كله إلى زخارف لفظية خاوية من كل معنى عميق ، أو إحساس صادق .

على حين يعتبر علم البيان وسيلة أكيدة من وسائل التصوير الأدبي ؛ بل الخلق الجمالي عن طريق التشبيهات والاستعارات والمجازات ، أي : الصور الأدبية التي تميز الأدب كفن تصويري عن غيره من أنواع الكتابة التقريرية .

وعلى حين يعتبر علم المعاني دراسة للتراكيب اللغوية ، وطرق الأداء والتلوين الفكري والعاطفي »[1] .

وأظن أن هذا القول فيه كثير من التجني على البديع : فإذا كانت الكتابة التقريرية لا تدخل في مجال الأدب ؛ لافتقارها إلى التصوير ، الذي هو من خصائص الأدب ، فهي قادرة على الإمساك بزمام التعبير والإفهام ، وذلك قدر يسير من الفضائل المتعددة التي تدخل ضمن دائرة علم المعاني ، وعلم المعاني هو : أحوال اللفظ العربي الذي يعرف به مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال كما يقول علماء البلاغة ، فهو - إذن - لبّ البلاغة وأساسها ، ولذلك فإن الكتابة التقريرية لا تعطينا شعراً مميزاً ، أو نثراً فنياً ملحوظاً .

حقيقة أن الكتابة التقريرية وعلم المعاني يشتركان في الإفهام والتعبير عن القصد ، وأخشى أن يسرع إلى خاطرك أن علم المعاني يتعلق بإفهام المعنى والتعبير عنه ، وتقف مهمته عند هذا الحد ، كلا ، بل إن مهمته أبعد غاية من ذلك : مهمته تتحدد في العلاقات المنظمة بين مجموع الكلمات التي تؤلف البيت من القصيدة ، أو الفقرة من القطعة الأدبية ؛ لأن ترتيب الكلمات على نسق معين يحقق

---

(١) النقد والنقاد المعاصرون - د / مندور ص ١٣ ، ١٤ ط نهضة مصر .

نغماً لا يخطئه السمع ، ولا يغفل عنه الوجدان . لذلك كان عبد القاهر الجرجاني على إدراك عميق حين لاحظ الحسن الذي يكون مصدره هذه العلاقات بين الألفاظ ، وهو ما يسمى بالنظم ، فموضع الحسن أن تتبع الألفاظ ترتيب المعاني ، والمعاني تتبع في ترتيبها منطق العقل ، فما يرى العقل وضعه أولاً يعبر عنه باللفظ أولاً ، وما يرى وضعه ثانيا يوضع ثانيا ، فإذا خطر المعنى أولاً في النفس ، كان اللفظ الذي يدل عليه أولاً في النطق وهكذا . ومن ثم كان موطن الجمال الفني في ترتيب الكلمات والعلاقات بينها . أجل هو جمال لا نستطيع أن نمسك بألفاظه كما في البديع ، ولكنه جمال خفي يتسلل من العقل فيثري الوجدان .

كما لاحظ عبد القاهر الحسن في البديع ، فقال في أسرار البلاغة : « إذا توافرت هذه المحسنات البديعية مع حسن النظم – الذي ذكرناه آنفاً – يكون الكلام قد قرى الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين » غاية ما في الأمر أن الإيقاع والأنغام الصادرة عن النظم خفية داخلية ، وفي البديع جلية خارجية ، فإذا اجتمع الحسن من كليهما ، استقر في الوجدان وظهر للعيان دفعة واحدة ، وهذا تمام الحسن وكماله .

ولو كان الشكل قليل الجدوى سواء كان مبعثه ترتيب الكلمات أو المحسنات ، لما خسر الشعر شيئاً بترجمته إلى لغة أخرى ، أو بتحويله الى نثر انسلخت عنه خصائص الشعر ؛ لأن الذي يميز الفن عن غيره هو الشكل ، فلو انهار الشكل ، لم يعد الفن فناً ، وإن احتفظ بالموضوع الذي يعبر عنه بحذافيره .

وإذا كان وجه الجمال في عالم المعاني ينكشف في ترتيب العلاقات بين كلماته على نحو خاص ، والغاية من البديع إضفاء الجمال على الكلام ، فهما يتضافران معاً على إبراز الايقاع الداخلي والخارجي للنظم ، إذا كان الأمر كذلك فإن الدهشة لا تعترينا إذا رأينا السيوطي (ت ٩١١ هـ) بعد أن ينتهي من الحديث عن موضوعات علم المعاني ، يذكر « ان كثيراً منها أوردها جمع من العلماء في علم البديع ، منهم الطيبي في التبيان ، وأصحاب البديعيات ، مثل الإيجاز بأنواعه ، والإطناب بأنواعه ، والالتفات والتغليب وغيرها »[١] .

---

(١) عقود الجمان . السيوطي ٢٥١/١ ط مصطفى الحلبي .

أما التصوير الذي هو من خصائص علم البيان ويميز الأدب عن غيره ، تعطيه التشبيهات والاستعارات والمجازات من خلق جمالي ، فإن علم البديع أقدر على خلق هذا الجمال ؛ لما فيه من تلاؤم في الألوان كما في التدبيج ، أو تماثل في الألفاظ كما في الجناس ، أو تضاد في المعاني كما في الطباق والمقابلة ، أو تناسب في العبارات كما في مراعاة النظير ، ويمكنك أن ترى هذا التوازن والتوافق في بقية المحسنات البديعية ، « والشعر إنما يختلف عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الكلمات متوافقة في الموازنة والمقدار كما يقول ابن رشد في تلخيص كتاب الشعر لأرسطو ، وما دام الشعر مبنياً على هذه الصور والأشكال ، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع »[1] .

والمحسنات البديعية لا تكون في يد الأديب الماهر مجرد ألفاظ عقيمة خاوية من كل معنى ، وإنما تتحول على يديه إلى شيء ذي قيمة عظيمة إذا أحسن استخدامها ، وأتى بها لتؤدي دوراً في إفادة المعنى ، فيزداد الكلام بها شرفاً وفضيلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى المقارنة التي ذكرها عبد القاهر بين الجناس الحسن والرديء ، ومتى يكون حسناً جميلاً ، ومتى يكون رديئاً قبيحاً .

ولعل النقاد في عصرنا الحديث قد زهدوا في البديع وهاجموا أصحابه ؛ لما انتهى إليه حال الشعر العربي قبل حركة البعث الحديثة على يد البارودي وشوقي وحافظ ممن أنقذوا الشعر العربي من تلك الهوة السحيقة التي تردى فيها منذ عصر العباسيين إلى حركة البعث الحديثة « فقد كانت هذه الفترة فترة انحطاط كامل تضخم فيها البديع تضخماً شديداً ، وملأ به الكتاب كلامهم ، وحشى به الشعراء أشعارهم مشرئبين بأعناقهم إلى أصحاب البديعيات من أمثال صفي الدين الحليّ الذي ذاعت شهرته في كل الفترة المتأخرة ، وفي ديوانه قصيدة تضم إحدى وخمسين ومائة صورة من صور البديع ، بل عنده رسائل كل أحرفها مهملة بلا نقط »[2] أو متجهين بأبصارهم نحو أصحاب المقامات ، كمقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري التي انصرفت إلى الأسلوب المصطنع الزاخر بالحلية اللفظية التي لا تعود على المعنى بفائدة تذكر .

---

(١) في أصول الأدب - الزيات ص ٥٧ - ٥٩ ط ٣ .
(٢) دراسات في تاريخ الأدب العربي - كراتشكوفسكي - ص ٢٣ ط ١٩٦٥ .

العقاد يصف الحالة التي انتهى إليها الشعر العربي من طغيان البديع بأنه « شعر لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة ، فملأه الشعراء بالتورية والكناية والجناس والترصيع ... وظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس ، وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها ، ويخلطون كلامهم بكلام غيرهم ، وهم لا يحسبون أنهم لا يخلون بروح الشعر ، ما داموا يلتزمون حروف الروي في كل بيت ، وعروض البحر في كل قصيدة »[1] .

فخروج البديع عن دائرته المرسومة ، وغلبة الكلفة عليه ، أحاله إلى صنعة عقيمة لا يؤدي دوراً في المجال الأدبي بصفة عامة ، والفن الشعري بصفة خاصة ، بل أصاب الأدب العربي بتدهور لعدة قرون انضب فيها ماء الشعر وأخرجه عن مداره .

كان طبيعياً أن يكون استخدام البديع بهذه الصورة ذا أثر قوي في تدمير الذوق الأدبي ، كما كان طبيعياً أن يهاجمه النقاد ويهونوا من شأنه ؛ لأنه أصبح سبباً من أسباب القبح ، وليس عاملاً من عوامل الجمال الذي لاحظه النقاد الأقدمون .

ويجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة عند بعض الدارسين المحدثين الذين نظروا إلى البديع نظرة موضوعية ، بعيدة عن عوامل الانحطاط الخارجية التي ألمت به في فترات القحط الفكري والجفاف الفني ، فهم يرون فيه قيمة كبرى ، وأنه يقف ندا لعلمي المعاني والبيان ؛ لأثره البارز في العبارة :

« إن المحسنات البديعية ليست أموراً تابعة للمعاني والبيان ، ولا ثانوية يسيرة الأهمية ؛ بل هي وجوه توجد وحدها ، وإنا برفض هذا الاعتبار في التقدير ، نستطيع النظر في هذه المحسنات نظراً متفنناً منعماً ، لندرك أثرها في العبارة »[2] .

---

(١) الشعر المصري بعد شوقي ص ٣ نقلا عن مقال للعقاد في الفصول ط نهضة مصر .

(٢) فن القول أمين الخولي ص ١٨٤ ط دار الفكر العربي .

٩

علماء البلاغة يعرفون البيان بأنه :

علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، وحصروا أبحاثه في التشبيه والمجاز والكناية .

وحصروا البديع في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة .

ويفهم من تعريف البديع ، أنه لا يأتي إلا بعد توافر المعاني والبيان ، وواضح مدى التعسف في مفهوم البديع بهذه الصورة « فالحق الذي لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من التطبيق على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ، قد يوجد دون الآخرين ، وأول برهان على ذلك أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى اشتمال شيء منها على التطبيق والإيراد ؛ بل تجد كثيراً منها خالياً عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي علم البيان ، هذا هو الإنصاف ، وإن كان مخالفاً لكلام الأكثرين »[١] .

ووجوه البديع على ضربين :

معنوي : يرجع إلى تحسين المعنى أولاً وبالذات ، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً[٢] ، كما في المشاكلة ، فالغرض فيها معنوي ، ويصحبه أيضاً الحسن اللفظي ، لما في المشاكلة من إيهام المجانسة .

ولفظي : يرجع إلى تحسين اللفظ أولاً وبالذات ، وإن كانت تفيد تحسين المعنى أيضاً ؛ لأنه إذا عبر بلفظ حسن ، استحسن معناه تبعاً ، وكذلك إذا كان المعنى حسناً تبعه حسن اللفظ الدال عليه .

الافتعال هنا ظاهر في تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية ؛ لأن تداخل الحسن

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص - السبكي ٢٨٤/٤ عيسى الحلبي .

(٢) المطول التفتازاني ٤١٧ ط ١٣٣٠ والأطول - العصام ١٨١/٢ ط ايران وعقود الجمان ٧٨/٢ .

فيهما واضح ، فما دام المعنى حسناً ، تبعه لفظ حسن يؤديه ، وما دام اللفظ حسناً ، فلا يعبر به إلا عن معنى حسن ، فالحسن المعنوي واللفظي مشترك بين المحسنات سواء أكانت معنوية أم لفظية ، ولا عبرة بأن يكون في أحدهما قدر أكبر من الآخر .

ومهما يكن فليس غرضنا الآن إبراز هذا التكلف في تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية ، ولكن الغرض إبراز الاضطراب الذي وقع فيه العلماء حين جعلوا تقسيم الكلام الى بيان وبديع ، ووضعوا الحدود للفرق بينهما دون أن يلتزموا بها عند التطبيق ، فنلحظ مثلاً أن :

١ – الاستعارة قد وضعها العلماء المتأخرون في علم البيان ، « وهي عندهم نوع من المجاز ؛ بل هي أفضل أنواع المجاز وأخص منه ، اذ قصد المبالغة شرط فيها ، وموقعها في الأذواق السليمة أبلغ ، وليس في أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت موقعها »[1] .

هذه الاستعارة التي اشترط فيها العلماء قصد المبالغة ، والتي عدها ابن حجة الحموي أعجب أنواع البديع إذا وقعت موقعها ، ضمها العلماء الى علم البيان ، في حين جعلوا المبالغة نفسها ، وهي : إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة ، وما يتفرع عنها من إغراق وغلو مقبول ، من أنواع البديع . الاستعارة والمبالغة يشتركان في هدف واحد هو المبالغة ، وفرقوا بينهما فجعلوا أحدهما بياناً والآخر بديعاً ، دون أن يكون ثمة مبرر لهذه التفرقة .

٢ – علماء البلاغة يضربون بعض الأمثلة ويقولون : إنها مجاز مرسل ، ثم يضربون الأمثلة نفسها ويقولون : إنها مشاكلة .

ففي قوله تعالى حكاية عن المنافقين : (قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون ، اللهُ يَستَهزئ بهم) البقرة ١٤ ، ١٥ والمعنى : أنه يجازيهم على استهزائهم ، وسمى الله تعالى ذلك استهزاء مجازاً ، من تسمية الجزاء على الذنب باسم الذنب[2] والعرب

---

(١) خزانه الأدب ، الحموي – ص ٤٨ ط ١ .

(٢) امالي المرتضى ٥٦/١ ، ١٤٤/٢ – ١٤٧ الشريف المرتضى ط عيسى الحلبي .

تسمي الجزاء على الفعل باسمه ، قال تعالى : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ ، مثلها) الشورى ٤٠ .

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) البقرة ١٩٤ وهو ما تعارف عليه العلماء بأنه مجاز مرسل علاقته السببية .

وفي باب المشاكلة[1] ، وهي : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، كقوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة ، والأصل : وجزاء سيئة عقوبة مثلها . ومنه قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) أي : فعاقبوه .

فإذا كانت الأمثلة نفسها يعبر عنها مرة بأنها مجاز مرسل ، وأخرى بأنها مشاكلة ، والمجاز يدخل في علم البيان الذي يعتد به عند علماء البلاغة ، بينما المشاكلة من البديع الذي يعتبر فضلة يمكن الاستغناء عنه ، والعلة لم تختلف ، فكيف يقال عن الشيء الواحد بأنه ذو قيمة ، وغير ذي قيمة في وقت واحد ؟ ! .

٣ - التدبيج : وهو عبارة عن ذكر ألوان يقصد بها التورية أو الكناية[2] كقول أبي تمام :

تردّى ثيابَ الموت حُمْراً فما أتى   لها الليلُ الا وهْي من سندس خضر

فحمرة الأكفان : كناية عن استشهاده بالقتل ، وخضرة السندس : كناية عن دخوله الجنة . هذا البيت وغيره مما ذكر فيه ألوان يقصد بها الكناية ، كناية وتدبيج في آن واحد ، فلمَ عد من البديع رغم إنه كنايه ؟ وإذا كان يحمل معنى الكناية فلماذا لم يوضع في علم البيان ؟

إن الحدود الفاصلة بين النوعين غير واضحة تماماً ، والاضطراب في المفاهيم ما زال قائماً .

٤ - تجاهل العارف : وسماه السكاكي بسوق المعلوم مساق غيره لنكتة المبالغة في التشبيه ، ومن الناس من جعل تجاهل العارف مطلقاً ، سواء كان على طريق

(١) خزانة الأدب ابن حجة ٣٥٦ . الايضاح - القزويني ٤٩٤ ط بيروت .
(٢) الايضاح ٤٨٣ .

التشبيه أو على غيره[1] . وفائدته المبالغة في المعنى ، نحو قولك : أوجهك هذا أم بدر ؟ فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر ، إلا أنه أراد المبالغة فاستفهم ، ففهم من ذلك شدة الشبه بين الوجه والبدر ، فإن كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلم خالياً من الشبه ، لم يكن من هذا الباب ، بل يكون من باب آخر كقوله تعالى : (وما تلك بيمينك يا موسى) طه ١٧ فإن السؤال ما وقع لأجل المبالغة في التشبيه المشار إليه في تجاهل العارف ؟ بل هو لفائدة أخرى : إما لإيناس موسى ؛ لأن المقام مقام رهبة ، وإما لأظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه .

انظر إلى تعريف تجاهل العارف ، وتضمنه لنكتة المبالغة في التشبيه حتى يدخل علم البديع ، وإذا كان خالياً من التشبيه لم يكن من هذا الباب ، وانما يكون من باب آخر ، ليكن من المعاني أو من البيان ، أي انه إذا خلا من التشبيه أصبح ذا منزلة عند علماء البلاغة ، وإذا تضمن التشبيه دخل في علم البديع ، وصار ذيلا في البلاغة لا يعتد به ، وليس وراء ذلك من عجب .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إذا كان تجاهل العارف أساسه المبالغة في التشبيه ، أفلا يكون أدعى أن يدخل في علم البيان ، وليس في البديع ؟ .

هذه بعض ألوان من البديع — لا نتوخى فيها الحصر — نرى من الأحرى أن توضع في علم البيان ، اللهم إلا إذا كان البديع والبيان بمنزلة واحدة ، لا يفضل أحدهما الآخر ، وليسا شيئين أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة . وكما قلت ليس الغرض حصر جميع الوجوه التي أدخلها علماء البلاغة في البديع ثم يقضون عليها بعد ذلك بأنها ليست من صميم البلاغة ، وانما هي من توابعها ، فيقللون من شأنها ، ويغضون من قيمتها ، وانما الغرض أن نبين أن هذه الأنواع وما يماثلها جديرة أن تضم إلى البيان ، ما دام الفضل يعزي إلى البيان دون البديع .

وقد كان الزمخشري على صواب حين كان « يسمى البيان والبديع بعلم البيان

---

(١) خزانة الأدب ١٢٢ .

في كثير من كلامه في الكشاف »[1] مهتدياً في ذلك بعبد القاهر الجرجاني الذي جعل البيان والبديع كلمتين مترادفتين[2] .

ونحب أن ننبه إلى أن بعض الأنواع التي وضعها المتأخرون في علم البديع لا تحمل سمة الحسن ، ولا تضفي على الكلام قيمة أو جمالاً ، وكثير منها لا يستحق أن يقتحم قلعة البديع أو يتربع في ساحته ، وإنما أضيفت إلى البديع ؛ تباهياً بابتكار أنواع جديدة ، وضعوا لها أسماء جديدة لم يسبقوا إليها . وابن حجة الحموي يصف الكثير من هذه الأنواع بإنها سافلة لا تستحق أن تنتظم في أسلاك البديع[3] .

* * *

وخلاصة البحث :

١ - ان عبقرية اللغة العربية تتمثل في جمالها وكمالها ، وجمالها ينبعث من جرسها وإيقاعها ، كما ينبعث من العلاقات بين ألفاظها ، واهتمام الشعراء والكتاب بتهذيب أشعارهم وأدبهم كان وسيلة للوصول إلى هذا الجمال والمحافظة عليه .

٢ - البديع هو الغاية من العلوم الأدبية كلها ، فهو في الذروة منها ، وليس تابعاً لها .

٣ - كثرة البديع أو قلته ليست سبباً في الحسن أو القبح ، وانما التكلف في استخدامه هو الذي يهوى بمنزلة البديع العالية .

٤ - كثرة البديع كان هو المجال الأكبر لمدرسة التجديد ، فنشأت عنه الخصومات ، وكان النقاد ما بين مفتون به وساخط عليه .

---

(١) شروح التلخيص ١٥٣/١ .
(٢) انظر مقدمة بديع القرآن - حفني شرف ص ٢٦ - ٢٨ ط نهضة مصر .
(٣) انظر خزانه الأدب ٣٧١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٤١٧ .

٥ - البديع ليس مجرد حلية ، وانما هو مرتبط بالمعنى ، وفصل البيان عن البديع نوع من الافتعال .

٦ - إبراز قيمة البديع باعتباره صنوا لعلمي المعاني والبيان .

٧ - البديع وجه من وجوه الإعجاز ، أو على أقل تقدير هو باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ..

البَـابُ الثّـَانِى

البَـديع عِنْدَ البَـلاغيّين



البديع عند البلاغيين

تطلق كلمة البديع على الغريب العجيب ، أو الجديد الذي ينشأ على غير مثال سابق ، وهي في أسماء الله تعالى بمعنى الخالق ابتداء لا عن مثال سابق ، يقول تعالى : (بَديعُ السّموات والأرْض ، وإذَا قَضى أمْراً فإنَّمَا يقولُ لهُ كُنْ فَيكُون) البقرة ١١٧ .

وفي الحديث الشريف بمعنى الحلاوة والطيب ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف تهامة : « إن تهامة كبديع العسل : حلو أوله ، حلو آخره » .

وقد استعمل الشعراء والكتاب البديع وألوانه ؛ لما فيه من طرافة وجمال ، دون أن يلتزموا بشيء من القيود التي وضعها العلماء المتأخرون لمفهوم البديع كعلم له مصطلحاته وألوانه الخاصة التي تقتصر عليه ، وحدوده التي يعرف بها دون أن يسمحوا لغيرها أن تدخل منطقته . فكل ما هو طريف وجميل ينطوي تحت كلمة البديع سواء كان جناساً أو طباقاً ، أو استعارة أو تشبيهاً ، أو إيجازاً أو إطناباً وله أثر في تكوين العبارة وتصويرها وتزيينها .

وتنبه الشعراء بصفة خاصة إلى الأثر الذي يتركه هذا البديع فأولعوا به واستخدموه في أشعارهم باعتباره وسيلة للوصول إلى هذه الغاية : استعمله بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومي ، والبحتري ، حتى أصبح البديع غاية في ذاته على يد أبي تمام .

ويقال إن مسلم بن الوليد هو أول من أطلق كلمة البديع على هذا الفن وليس ابن المعتز ، فقد جاء مسلم بهذا الذي سماه الناس البديع[1] وشاعت هذه الكلمة

(١) الأغاني — الأصفهاني ٣١/١٩ ط دار التأليف .

حتى صارت في العصر العباسي تعني كل صورة غريبة أو طريفة أو جديدة حتى طغت على الأساليب الشعرية أو النثرية .

جاء ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) وأراد أن يجمع شتات هذه الألوان البديعية المتفرقة في سلك واحد ، فوضع اللبنة الأولى في بناء صرح البديع : جمع منه سبعة عشر لوناً ، وتباهى بعمله فقال : وما جمع فنون البديع أحد قبلي ، ولا سبقني إليه مؤلف .

وعاصره قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) فجمع من ألوان البديع عشرين نوعاً ، منها سبعة أنواع ذكرها ابن المعتز من قبل ، فكان ما زاده قدامة ثلاثة عشر نوعاً فتكامل لهما ثلاثون .

ثم تبعهما العلماء في رفع قواعد هذا البناء ، فجمع أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) سبعة وثلاثين نوعاً مضيفا إلى قدامة سبعة أنواع أخرى .

وأتى ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) فأضاف إلى البديع ما أضاف ، حتى بلغ به خمسة وستين باباً كما يقول السبكي[1] .

إلى أن جاء ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) فنظر في هذا الحشد من ألوان البديع فرأى بعضها ينشأ من وضع الألفاظ في مواضعها ، وبعضها يأتي من مناسبة الألفاظ للمعاني ، فجعلها نوعين :

قسم يتعلق بالألفاظ وآخر يتعلق بالمعاني[2] . فكانت هذه النظرة المتأملة الفاحصة مدخلاً للعلماء المتأخرين أن يقسّوا البديع إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية .

ثم رأينا ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) يتناول البديع فيبدع ، ويذكر أنه وقف على أربعين كتاباً في هذا الفن ، وأخذ منها سبعين نوعاً ، واستخرج عشرين[3] .

---

(١) عروس الأفراح ٤/٤٦٧ .

(٢) سر الفصاحة ١١٠ ، ١١٨ وما بعدهما .

(٣) انظر مقدمة تحرير التحبير ص ٨٧ .

وصنف ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) كتاب التفريع في البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعاً[٤] .

كل ذلك وألوان البديع ينطوي تحتها ما يدخل في علم المعاني ، وما يدخل في علم البيان ، وما يدخل في علم البديع . إلى أن جاء السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) وحاول أن يرسم الحدود بين هذه العلوم الثلاثة ويضع كلاً منها في موضعه الذي يراه . فلا تختلط الحدود ، ولا تتداخل الأمور . فوضع أنواع البديع تحت اسم المحسنات وقسمها مهتدياً بالخفاجي إلى محسنات معنوية ، ومحسنات لفظية ، وفصلها عن علم المعاني وعلم البيان .

بقيت خطوة أخيرة قام بها الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) وهي أنه ضم هذه المحسنات التي ذكرها السكاكي تحت اسم البديع . وانتهت إلى ذلك علوم البلاغة بأقسامها الثلاثة : معان ، وبيان ، وبديع .

ذكر الخطيب القزويني من البديع المعنوي ثلاثين نوعاً . ومن اللفظي سبعة أنواع ، وذكر أثناءها أموراً ملحقة بها تصلح أن تعد أنواعاً آخر .

وما جاء به الخطيب هو المعتمد حتى الآن في دراستنا للبديع ، دون نظر إلى هذا السيل الجحاف الذي أتى به من قبله من ألوان البديع ، ومن جاء بعده من أصحاب البديعيات ، حتى وصلت على أيدي أصحابها إلى أكثر من مائتي نوع ! .

والبديع عند البلاغيين هو :

علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضي الحال ورعاية وضوح الدلالة .

أي : أن هذه الوجوه تعتبر محسنة للكلام بعد رعاية هذين الأمرين ، وإلا لكان البديع كتعليق الدر على أعناق الخنازير .

وقد يخلو الكلام الفصيح البليغ عن صنعة البديع ، كذلك يخلو الكلام

---

(٤) عقود الجمان ٧٨/٢ .

الذي فيه صنعة البديع عن الفصاحة والبلاغة ، فيظن أن الصانع يستحق المـدح باعتبار صنعة البديع ، والذم باعتبار فوات صناعة الفصاحة والبلاغة ، كلا ليس الأمر كذلك ، فصانع البديع لا يستحق المدح على الإطلاق ، وإنما يستحق المدح بعد رعاية شرائط البلاغة من رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، ولذلك دخلت هذه الشرائط في تعريف البديع . فالبديع لا يكون بديعاً إلا بمراعاة ما يدخل في نطاق المعاني والبيان ، وحينئذ يعدّ الكلام الذي يشمل صنعة البديع هو أقصى مراتب الكلام في الكمال . فإذا عرّفنا الكلام الكامل غاية الكمال قلنا :

إنه كلام بليغ موشّى بالمحسنات البديعية .

ومحسنات الكلام : إما معنوية ، وإما لفظية .

فالمعنوي : هو ما يزيد المعنى حسناً ، إما بزيادة تنبيه على شيء ، أو بزيادة التناسب بين أجزاء الكلام ، فبعض هذه المحسنات المعنوية – إذن – لا تخلو عن تحسين اللفظ .

واللفظي : هو ما يزيد الألفاظ حسناً ، وإن كان لا يخلو عن تحسين المعنى .

وقد جرت عادة العلماء أن يبدأوا بالمعنوي ؛ لأن المقصود الأصلي هو المعاني ، والألفاظ توابع وقوالب لها .

ونبدأ بالحديث عن المحسنات المعنوية جرياً على المألوف .

الفصل الأول

المحسّنات المعنويّة

فمن المحسنات المعنوية :

الطباق :

ويسمى المطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ .

وهو : أن يجمع بين متضادين ، أي : معنيين متقابلين في الجملة . وهو نوعان : حقيقي ومجازي ، ويخص بعضهم الثاني باسم : التكافؤ : فالطباق الحقيقي ، ما كان بألفاظ الحقيقة ، كقوله تعالى :

(وما يَسْتوِي الأعْمىَ والبصِير ، ولا الظُلماتُ ولا النورُ ، ولاَ الظّلُّ ولا الحَرور وما يستوي الأَحْياءُ ولا الأمْوات) فاطر ١٩ – ٢٢ .

وقوله تعالى : (وأنهُ هُو أضْحكَ وأَبْكَى ، وأنّه هُو أماتَ وأَحْياَ ، وأنّهُ خلقَ الزّوجَيْنِ : الذّكَرَ والأنْثَى) النجم ٤٣ – ٤٥ .

وقوله تعالى : (وتحسَبُهُمْ أيقَاظاً وهُمْ رُقُود) الكهف ١٨ .

وقوله تعالى : (سَواءٌ منكمْ مَن أسرَّ القَوْلَ ومَنْ جهَرَ بهِ ومَنْ هو مَسْتَخْفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنّهار) الرعد ١٠ .

ومنه قوله تعالى : (في جنةٍ عاليةٍ ، قُطُوفَها دَانِيَة) الحاقة ٢٢ ، ٢٣ طابق بين العلو والدنو .

وقوله تعالى : (فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ ، وأكوابٌ مَوْضوعَة) الغاشية ١٣ ، ١٤ .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم :

(إنكم لتكثُرون عند الفَزَع وتقلّون عند الطَّمَع) فطابق بين الكثرة والقلة .

وكقول الشاعر :

ويـــومٌ علينْـــا ويـــومٌ لنـــا ويـــومٌ نُسَاءُ ويـــومٌ نُسَـــرّ

وقول ابن الدمينة :

لإنْ ساءني أن نلْتَني بمساءَةَ لقد سرّني أنيّ خطَرتُ ببالك

والطباق المجازي : ما كان بألفاظ المجاز ، كقوله تعالى : (أُولئكَ الذينَ اشتَروْا الضلاَلَةَ بالهُدَى) البقرة ١٦ .

فإن اشتراء الضلالة وبيع الهدى مجاز ؛ لأن اشتراء الضلالة وبيع الهدى لا يكون على سبيل الحقيقة .

وكقول علي رضي الله عنه :

« أحذروا صَوْلَةَ الكريـم إذا جاع ، واللئيـم إذا شبع » . ليس يعني بالجوع والشبع ما يعرفه الناس من امتلاء المعدة وخلوّها ، وإنما المراد : احذروا صولة الكريم إذا ضِيم وامتُهن ، واحذروا صولة اللئيم إذا أُكرم وعظم .

وكقول التهامي :

لقد أحْيَا المكارمَ بعد مَوْت وشادَ بناءَها بعدَ انهدامِ

فالأحياء والموت ، والشيد والانهدام ، ليست معاني حقيقية ؛ بل هي مجازية ، إذ المراد : أنه أعطى بعد أن امتنع الناس كلهم عن العطاء .

* * *

والطباق قد يكون طباق إيجاب كالأمثلة السابقة ، وقد يكون طباق سلب ، كقوله تعالى :

(وإنْ يَروْا سبيلَ الرشْدِ لا يتّخِذُوه سبيلاً وإنْ يَروْا سبيلَ الغيِّ يتّخِذُوهُ سبيلاً)

الأعراف ١٤٦ فطابق بين لا يتخذوه وبين يتخذوه .

ومثله قوله تعالى :

(إنّ الذينَ كفروا سواءٌ عليهمْ أأَنْـذَرْتَـهُمْ أمْ لَمْ تُـنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون) البقرة ٦ طابق بين الإنذار وعدم الإنذار ، وأحدهما موجب والآخر منفى .

وقوله عز وجل :

(تَـعْلَـمُ ما فِي نَـفْسِي ولا أعْلَمُ ما فِي نَـفْسِك) المائدة ١١٦ .

أثبت العلم أولاً ونفاه ثانياً .

وقوله عليه السلام :

«كونوا للعلم دُعاة ، ولا تكونوا له رُوَاة » .

* * *

وهذه كلها أمثلة للطباق اللفظي .

وهناك نوع آخر هو الطباق المعنوي . وهو ما كان في المعنى وليس في اللفظ كقوله تعالى :

(إنْ أنتمْ ألاّ تَـكْذِبُون ، قالوا رَبُّنَا يَعْـلَمُ إنّا إليكُمْ لَمُرْسَلَون) يس ١٥ ، ١٦ معناه : ربنا يعلم إنّا لصادقون .

وقوله تعالى :

(فَمَنْ يُرِ دْ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَه للإسْلام ومَنْ يُرِ دْ أنْ يُضِلّهُ يَجْعَلْ صدْره ضَيّقاً حَرَجاً كأنمّا يَصّـعّدُ في السّماء) الأنعام ١٢٥ .

فقوله : يهديه ويضله من الطباق اللفظي .

وقوله : يشرح صدره مع قوله يجعل صدره ضيقاً حرجاً من الطباق المعنوي ؛ لأن معنى « يشرح صدره » يوسعه بالإيمان ، ويفسحه بالنور وهو يطابق قوله : « ضيقاً حرجاً » .

وقوله تعالى :

(الذي جَعَلَ لكُم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بِناَءً) البقرة ٢٢ البناء ارتفاع ، والفراش على خلاف البناء .

وكقول المقنّع الكندي من أبيات الحمامة :

لهم جُلُّ مالي إنْ تَتَابَع لي غِنىً وإن قَلَّ مالي لا أكلفهم رفدا

فهذا من الطباق المعنوي ؛ لأن قوله : إن تتابع لي غنى ، معناه: إن كثر مالي ، والكثرة ضد القلة .

* * *

وقد يكون الطباق خفياً ، كقوله تعالى :

(ولكُمْ في القِصَاصِ حيَاةٌ) البقرة ١٧٩ فالقصاص معناه : القتل ، وهو سبب في الابقاء على الحياة . وقوله تعالى :

(ويا قَوْمِ مالي أَدْعُوكُمْ إلىَ النَّجَاةِ وتَدْعُونَنِي إلىَ النَّارِ) غافر ٤١ فقوله : أدعوكم إلى النجاة معناه : أدعوكم إلى الجنة وهو ضد النار .

تعالى : (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارا) نوح ٢٥ فالإغراق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار ، وهما متضادان وهي أخفى مطابقة في القرآن . هكذا قال ابن منقذ[1] .

وقوله تعالى : (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً) النحل ٥٨ .

لأن ظل لا تستعمل إلا نهارا ، فإذا لمح مع ذكر السواد ، كأنه طباق بذكر البياض مع السواد .

وكقول الشاعر :

وجْهُهُ غايةُ الجمالِ ولكن فعله غايةٌ لكلٍّ قبيح

---

(١) البديع في نقد الشعر ص ٣٦ط وزارة الثقافة .

فالجمال ضده الدمامة ، والدمامة تستلزم القبح ، فكان الطباق خفياً .

واعلم أن مطابقة الضد بالضد ليس تحته كبير أمر ، وإنما يحسن الطباق إذا رشح بنوع آخر من البديع يكسوه حلاوة لا توجد عند فقده ، وما وقع من الطباق في القرآن الكريم رشح بنوع آخر من البديع ، كقوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُم البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً) الرعد ١٢ .

إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين ، فشفع الطباق بالتقسيم .

وقوله تعالى :

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنهارَ لِتَسْكُنُوا فيه ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه ولعلَّكُم تَشْكُرُونَ) القصص ٧٣ فإن فيه مع المطابقة اللف والنشر .

وقوله تعالى :

(تُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ وتُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ وتُخْرِجُ الحيَّ مِنْ الميِّتِ وتُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ) آل عمران ٢٧ فيه مع المطابقة العكس والتبديل .

وهكذا إذا تتبعت الطباق في القرآن وجدته مرشحاً بنوع آخر من البديع ، فتلحظ في الطباق إيقاع التوافق بين ما هو في غاية التخالف .

* * *

المقابلة :

هي أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر ، ثم بأضدادها أو غيرهما على الترتيب .

والفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد ، والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها ، وإن كانت الأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً .

والثاني : أن الطباق لا يكون إلا بين ضدين فقط ، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد عن ذلك من أربعة إلى عشرة ، وكلما كثر عددها كانت أوقع .

مثال ذلك قوله تعالى :

(وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وهوَ خَيْرٌ لكُمْ وعَسى أنْ تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكُمْ) البقرة ٢١٦ فأتى أولاً بلفظين متوافقين وهما تكرهوا وخير ، ثم أتى بضديهما وهما : تحبوا ، وشر .

وقوله تعالى : (وَيُحِلُّ لهُم الطَّيباَتِ ويُحَرِّ مُ عليْهم الخبائِثَ) الأعراف ١٥٧ .

وقوله تعالى : (فَأَثَابكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لكيْلاَ تَحْزَنوا على ما فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بما آتاكم) آل عمران ١٥٣ فقابل الفرح بالحزن ، والإتيان بالفوت .

وقوله تعالى :

(إنّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وايتاءِ ذي القُرْبَى ، وَيَنْهىَ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ) النحل ٩٠ فقابل بين الأمر وما يتبعه ، وبين النهي وما يتبعه ، فقد أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة ، ففي الآية مقابلة أربعة أشياء بأربعة أشياء .

وكقول علي رضى الله عنه لعثمان :

« إن الحق ثقيل مريء ، والباطل خفيف وبيء[1] ، وأنت رجل إن صَدَقْتُكَ سخطتَ ، وإن كذبْتُكَ رضيتَ » ، فقابل الحق بالباطل ، والثقيل المريء بالخفيف الوبيء ، والصدق بالكذب ، والسخط بالرضا ، فهذه خمس مقابلات .

ومثال مقابلة ستة بستة قول الشاعر :

على رأس عبدٍ تاجُ عزٍّ يَزينه وفي رجلِ حُرٍّ قيدُ ذُلٍّ يَشينهُ

هذه أمثلة المقابلة بالأضداد ، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد كقوله تعالى : (إنْ تُصِبْكَ حسنةٌ تَسُوءْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصِيبةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) التوبة ٥٠ فضد الحسنة السيئة ، والمصيبة تقارب السيئة ، فكل مصيبة سيئة دون العكس ، فالمناسبة ظاهرة

(١) الباطل وبيء : لا تحمد عاقبته .

بين الحسنة والمصيبة وإن لم يكن أحدهما ضد الآخر .

ومن ذلك قوله تعالى :

(الشيطانُ يَعِدُكُم الفقرَ ويأمركُمْ بالفَحْشَاء واللهُ يعِدُكُمْ مغْفِرةً منه وفَضْلاً) البقرة ٦٨ ، فذكر أولاً وعد الشيطان لهم بالفقر والفحشاء ، ثم قابل الفقر بالفضل ، والأمر بالفحشاء بالمغفرة ، إذ الفحشاء توجب العقوبة ، والعقوبة لازمة لارتكاب الفواحش ، والمغفرة تقابل العقوبة . فكانت الآية من أجلّ المقابلات .

وقوله تعالى :

(أشدّاءُ على الكفّارِ رُحَماءُ بينهم) الفتح ٢٩ .

فالرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، فلما كانت الرحمة سبباً في اللين حسنت المطابقة بينهما ، وكانت المقابلة لائقة .

ومن أبرع المقابلات ذلك التقابل الذي يعرضه القرآن مصوراً فيه العذاب الحسي والنعيم المادي :

(هلْ أتاكَ حديثُ الغاشيَة ، وجوهٌ يومئذٍ خاشِعَة ، عاملةٌ ناصِبَة ، تَصْلَى ناراً حَامِية ، تُسْقَى من عَيْنٍ آنية ، ليس لهم طَعامٌ إلاّ مِنْ ضَريعٍ ، لا يُسْمِـنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوع) الغاشية ١ – ٧ .

وفي مقابل هذا العذاب الحسي تأتي صورة النعيم المادي بعدها مباشرة (وُجُوهٌ يومئذٍ نَاعِمَةٌ ، لسعْيِها راضِيَةٌ ، في جَنّة عالية ، لا تَسْمَع فيها لاغِية ، فيها عَيْنٌ جَارِيَة ، فيها سُرُرٌ مرفوعة ، وأكْوابٌ مَوْضُوعَة ، ونمارقُ مَصْفُوفَة ، وَزَرابِـيٌّ مبْثُوثَة) الغاشية ظ – ١٦ .

فالمقابلة واضحة في كل جزئية من الجزئيات التي تصور حالة الكافريـن وعذابهم ، وحالة المؤمنين ونعيمهم .

وكذلك المقابلات التي توارد بعضها أثر بعض في سورة الليل :

(والليل إذا يَغْشَى ، والنهارِ إذا تَجلّى ، وما خلقَ الذّكَرَ والأُنْثَى ، إنَّ سَعيَكُمْ

لشتّى ، فأمّا مَنْ أعْطَى واتّقَى ، وصدّقَ بالحُسْنَى ، فسنيسّره لليُسْرى ، وأما مَنْ بَخِلَ واستَغْنَى ، وكذّب بالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّره للعُسْرَى ، وما يُغْنِي عنه ماله إذا تَردّى ، إنّ علينا لَلْهُدَى ، وإنّ لنَا للآخرةَ والأُولَى ، فأنذرتُكُمْ ناراً تَلظّى ، لا يصْلاها إلا الأشْقَى ، الذي كذّبَ وتولّى ، وسَيُجَنَّبُهَا الأتْقَى ، الذي يُؤْتِي ماله يَتزكّى ، وما لأحَدٍ عنده مِنْ نِعْمَةٍ تُجزَى ، إلاّ ابتِغاءَ وجهِ ربّهِ الأعلَى ، ولسوفَ يَرْضَى) الليل ١ – ٢١ .

« فالنهار إذا تجلى » يقابل تماماً « الليل إذا يغشى » ، والأنثى تقابل الذكر في النوع والخلقه ، ومن « بخل واستغنى » يقابل من « أعطى واتقى » « وكذب بالحسنى » يقابل من « صدق بالحسنى » و« سنيسره للعسرى » في مقابلة « فسنيسره لليسرى » ، « وسيجنبها الأتقى » في مقابلة « لا يصلاها إلا الأشقى » .

فالمساعي بين الناس مختلفة متباعدة ؛ لأن منهم المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، ومن يسعى لاتقاء النار ومن يلقى بنفسه فيها ، نتيجة لاتقاء الله أو الاستغناء عنه ، فكانت هذه الصور المتقابلة في تواتر عجيب لتحدد لنا هذين الصنفين من الناس وجزاء كل فريق منهم .

واعلم أن في تقابل المعاني باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل ، وهو غالباً يتصل بالفواصل ، كما نلاحظ في الآيات السابقة .

وقد يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر ، وإذا تؤمل كان من أكمل المقابلات ، مثال ذلك قوله تعالى :

(إنّ لكَ ألاّ تَجُوعَ فيها ولا تَعْرَى ، وأنّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولاَ تَضْحَى) طـه ١١٨ ، ١١٩ .

فالظاهر أنه يقابل الجوع بالظمأ والعرى بالضحى .

ولكنه قابل الجوع بالعرى ، والظمأ بالضحى .

والمدقق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة ؛ لأن الجوع ألم الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر فقابل احتراقاً باحتراق ، كما قابل الخلو بالخلو في العرى والظمأ ، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً .

ومثل ذلك قوله تعالى :

(مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى والأَصَمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ) هود ٢٤ ، فإنه يتبادر إلى الذهن هذا السؤال :

لِمَ لَمْ يقل : مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، « والأصم والسميع » لتكون المقابلة في لفظ « الأعمى » وضده « البصير » وفي لفظ « الأصم » وضده « السميع » ؟

والجواب : أنه لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضد ذلك ، لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ، فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة والأتم في الإعجاز .

* * *

التدبيج :

وهو أن يذكر المتكلم ألواناً بقصد الكناية بها ، أو التورية . كقوله تعالى :

(وَمِنَ الجبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مختَلِفٌ ألوانُها وَغَرابِيبُ سُود) فاطر ٢٧ فالألوان هنا كناية عن المشتبه والواضح من الطرق[1] .

فالجادة البيضاء هي الطريق المأهول ، وهي أوضح الطرق وأبينها ، ودونها الحمراء ، ودون الحمراء السوداء ، كأنها في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في الظهور والوضوح . فالطرف الأعلى في الظهور البياض ، والطرف الأدنى في الخفاء السواد ، والأحمر بينهما على وضع الألوان في التركيب ، وأشار بقوله (مختلف ألوانها) إلى ما في هذه الألوان من الوسائط بين مركباتها وهي لا تدخل تحت الحصر ، فعبر عنها بعبارة غير حاصرة لها .

ومنه قول الرسول عليه السلام :

(ما من عبد يموتُ فيترك صفراءَ أو بيضاءَ إلا جعل اللهُ بكل قيراطٍ منها

---

(١) بديع القرآن - ابن أبي الأصبع ص ٢٤٢ ، الأتقان - السيوطي ٨٩/٢ .

صفحةً من نار) ذكر الصفراء وكني بهما عن الذهب والفضة . ومن التدبيج قول ابن حيوّس :

ببياض عـزمٍ واحمـرارِ صـوارم ... وسوادِ نقـعٍ واخضرار رحـاب

وقول الصفدي :

مـا أبصرت عينـاى أحسن منظـراً ... فيمـا تـرى من سائـر الأشيـاءِ
كـالشامـة الخضـراء فـوق الوجْنَـةِ ... الحمـراء تحـت المُقْلَـةِ السوداءِ .

يقول العلوي[1] وللتدبيج موقع عظيم في البلاغة ، وهو يكسب الكلام طلاوة ، ويزيده حلاوة ، ويقول في موضع آخر ، وله أصل في البلاغة وفرع في الفصاحة باسق شامل .

ومن العلماء من لم يشترط في الألوان قصد الكناية أو التورية حتى تكون من التدبيج ، فذكر الألوان وحده يكفي لأن تدخل في باب التدبيج كما في قوله تعالى : (هُوَ الّذي جعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً) يس ٨٠ ، فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر ، وهذا من التدبيج البديعي[2] ومنه في الذم ما قاله بعض الشعراء :

وأحْبَبْـتُ مـن حُبهّـا الباخلينَ ... حتـى وَمَقْتُ ابـن سلـم سعيداً
إذا سيـلَ عـرْفـاً كسَا وجهَـهُ ... ثيـاباً مـن اللؤمِ بيضـاً وَسُودَا

مراعاة النظير[3] :

وهذا النوع سماه قوم بالتوفيق ، وآخرون بالتناسب ، وجماعة بالائتلاف وبعضهم بالمؤاخاة .

وهو عبارة عن الجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، والمناسبة هنا عامة سواء

(١) الطراز - العلوي ٣/٧٨ ، ٧٩ .
(٢) البرهان في علوم القرآن - الزركشي ٣/٤٥٧ .
(٣) أنوار الربيع - ابن معصوم ٣/١١٩ .

كانت المناسبة في اللفظ مع المعنى ، أو في اللفظ مع اللفظ .

فمن مناسبة اللفظ مع المعنى قوله عليه السلام[1] :

(ألا أخبركم بأهلِ الجنة : كل ضعيفٍ متضعَّف ، أغبرَ ذى طِمرَّيْن ، لأيُؤْبَهُ به ، لو أقسم على الله لأبرّه .

ألا أخبركم بأهل النار : كل عُتُلّ جَوّاظ متكبّر) . أتى في أهل الجنة بألفاظ سهلة رقيقة ، وفي أهل النار بألفاظ جزلة شديدة ، فوقع التناسب بين الألفاظ ومعانيها .

ومن مناسبة اللفظ مع اللفظ ، قوله تعالى :

(الشمسُ والقمرُ بِحُسْبَان) الرحمن ٥ فكل منهما مناسب للآخر فالشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ويشتركان في الإضاءة .

وقوله عليه السلام : (ذُو الوجهَيْن في الدنيا ذُو اللسانَيْنِ في النّار) فناسب بين الوجهين واللسانين .

ومن بديع هذا النوع قول بعضهم في آل بيت النبي رضي الله عنهم :

أنتــم بنو طــه ، ونـــون ، والضحـى	وبنـو تبـارك والكتـابِ المُحْكَمِ
وبنـو الأباطـحِ ، والمشاعر . والصفا	والركـنِ ، والبيتِ العتيق ، وزمزمِ

فأنه أحسن المناسبة في البيت الأول : بين أسماء السور ، وفي الثاني : بين الجهات الحجازية .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

دَع اليراعَ لقـــوم يفخـــرون بـــه	وبالطّوال الرُدَيْنَاتِ فـافتخـرِ
فهـن اقـلامُـك الـلاّتي إذا كتبت	مجداً أتت بمـداد من دم هـدرِ

فناسب بين الأقلام والكتابة والمداد .

---

(١) عقود الجمان — السيوطي ٨٧/٢ .

تشابه الأطراف :

وهو أن يعيد الشاعر لفظة القافية في أول البيت الذي يليها ، فتكون الأطراف متشابهة .

أو يعيد الناثر سجعة القرينة الأولى في أول القرينة التي تليها . ووقع ذلك في القرآن الكريم ، قال تعالى :

(وعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وعْده ، ولكنّ أكثَر الناسِ لا يَعْلَمون ، يَعْلَمُـونَ ظَاهِراً مِن الحياةِ الدنيا) الروم ٦ ، ٧ فأعاد فاصلة الآية الأولى في أول الآية الثانية . كما وقع في غير الفواصل ، كقوله تعالى :

(اللهُ نُورُ السموات والأرضِ مَثَلُ نُورِ كَمِشْكَاةٍ فيها مِصْبَاح ، المِصْباحُ في زجاجةٍ ، الزجاجةُ كأنّها كَوْكَبٌ دَرِيٌّ) النور ٣٥ .

ومن أمثلته الشعرية قول ليلى الاخيلية تمدح الحجاج بن يوسف :

إذا نـزل الحجّـاج أرضـاً مريضـة ... تتبّـع أقصـى دائِهـا فشفاهـا
شفاهـا من الـداء العضال الـذي بهـا ... غـلامٌ إذا هـزّ القنـاةَ سقـاهـا
سقـاهـا فـروّاهـا بشرب سِجـالهـا ... دمـاءَ رجـال يَحْـلُبون صَراهـا

ومنه قول أبي نواس :

خـزيمـةُ خيـرُ بنـي خـازِم ... وخـازمٌ خيـر بنـي دارمِ
ودارمٌ خيـر تميـم ومـا ... مثـل تميـم في بنـي آدمِ

« وفي هذا النوع من البديع دلالة على قوة عارضة الشاعر ، وتصرفه في الكلام وإطاعة الألفاظ له ، ولا يخلو مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع ، فإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به ، حتى كأن معنى البيتين أو الثلاثة معنى واحد »[1] .

ومن تشابه الأطراف نوع آخر يناسب المعنى ، وهو أن يبتدىء المتكلم كلامه

---

(١) أنوار الربيع ٣/٥٠ .

بمعنى ، ثم يختمه بما يناسب ذلك المعنى الذي ابتدأ به ، فيعد قسماً من مراعاة النظير ، كقوله تعالى :

(أوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إنّ في ذلك لآياتٍ أفلا يَسْمَعُون ، أوَلَمْ يَرَوا أنّا نَسُوقُ الماءَ إلى الأرضِ الجُرُزِ فنخرجُ به زرعاً تأكلُ منه أنعامُهم وأنفسهم أفلا يُبْصرون) البقرة ٢٠٩ فقوله (أفــلا يسمعون) في ختام الآية الأولى يناسب قوله في أولها (أو لم يهد لهم) ؛ لأن الموعظة سمعية ، وقوله في ختام الثانية (أفلا يبصرون) يناسب قوله في أولها (أو لم يروا) ؛ لأن الموعظة بصرية .

ومثله قوله تعالى :

(فإنْ زَلَلْتُم مِنْ بَعْدِ ما جاءتْكُم البيناتُ فاعلموا أنّ اللهَ عزيزٌ حكيم) البقرة ٢٠٩ ولم يقل في نهاية الآية : ان الله غفور رحيم بدلاً من عزيز حكيم ؛ لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنه إغراء عليه ، فتشابه الطرفين واضح في الآية .

* * *

التفويف :

وهو إتيان المتكلم بفنون شتى ، كل فن في جملة منفصلة ، مع تساوي الجمل في الوزن . كقوله تعالى :

(الذي خلَقَنِي فهوَ يَهْدِين ، والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقِين ، وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِين ، والذي يُميتُني ثم يُحْيِين ، والذي أَطْمَعُ انْ يَغْفِرَ لي خَطيئَتِي يـومَ الدِّين ، ربّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِين) الشعراء ٧٨ — ٨٣ .

وكقوله تعالى :

(تُولجُ اللّيلَ في النّهارِ ، وتُولجُ النّهارَ في الليل ، وتُخْرِجُ الحيَّ مـن الميّتِ ، وتُخرجُ الميّتَ من الحيّ) آل عمران ٢٧ .

وفي كلتا هاتين الآيتين من المحاسن بعد التفويف طرف من المحاسن يستفز العقول طرباً[1] .

وكقول الشاعر :

ولـو انّ ما بي بالجبال لَدُكْـدكـتْ وبالنار أطْفاها ، وبالماء لـم يجْر
وبالناس لم يَحْيَوا ، وبالدهر لَم يكـن وبالشمس لم تطلع ، وبالنّجم لم يسرِ

هذا النوع من التفويف يرجع إلى الألفاظ ، وهناك نوع آخر من التفويف يرجع إلى المعنى .

وضابطه : أن تصف الممدوح بما يدل على مدحه من صفات المكارم وسمات المحامد ، ثم تورد صفات دالة على ذمه ، ولكن اقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحا . ومثاله قول جرير :

هـــمْ الاخيــارُ مَنْسَكَـــةً وهَـدْيــا وفِـي الهَيْجَـا كأُنهـمْ صُقُـــورُ
بهـــمْ حَـدبَ الكرامُ عـلى المعـالي وفيهـــمْ عـن مساوِ يهـم فُتُـورُ
خلائـقُ بعضُهمْ فيهــا كبعــضٍ يَـــؤمُّ كبيرَهـــم فيهـا الصغيرُ
عـــن النكـــراء كلّهـم غبـــيٌّ وبـالمعـروف كـلُّهـمُ بَصِيـــرُ

فكل واحد من هذه الأبيات قد تضمن ما يرشد إلى الذم ، لكن اقترن به ما يخرجه إلى المدح :

فقوله : كأنهم صقور ، صفة ذم ؛ لأن من شأن الصقور الخطف والبغي ، لكنه لما اقترن بقوله : الهيجا ، كان مدحاً ؛ لأن الإنسان إذا كان في الحرب كالصقر يغلب غيره ويسلبه ، فهو مدح لا محالة .

وقوله : وفيهم عن مساويهم فتور ، الفتور هو الضعف والعجز ، وهذه صفة ذم ، لكنه لما اقترن بقوله : بهم حدب الكرام على المعالي ، صار مدحاً ؛ لأن الإنسان إذا كان مولعاً بالخصال السامية وكان متكاسلاً عن المساوىء ، فهذا نهاية المدح .

---

(١) بديع القرآن ٩٨ - ٩٩ .

وقوله : يؤم كبيرهم فيها الصغير ، يكون ذماً ؛ لأنه لا خير في الكبير إذا كان مقتدياً بالصغير ، لكنه لما اقترن بقوله : خلائق بعضهم فيها كبعض ، أفهم أن الصغير والكبير فيهم سواء في فعل المعروف والإحسان .

وهكذا قوله : عن النكراء كلهم غبي ، وبالمعروف كلهم بصير ، فإن الغباوة صفة ذم ، ولكنها إذا اقترنت بقوله : وبالمعروف كلهم بصير ، كان دليلاً على المدح .

الأرصاد :

ويسمى التسهيم .

وهو أن يكون ما يتقدم من الكلام دليلاً على ما يتأخر منه . ومثل هذا النوع من البديع محمود في الكلام كله : نثره ونظمه ، وهو في كتاب الله تعالى أكثر من أن يحصى ، وما ذاك إلا لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض .

ففائدة الإرصاد : أنه يدل على براعة الناظم والناثر ؛ لأن أول الكلام لا يدل على آخره إلا لشدة ارتباطه به ، وذلك من أعلى المطالب .

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى :

(مَثَل الذين اتّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أولياءَ كمثَلِ العَنْكبُوتِ اتّخَذَتْ بيتاً وإنَّ أوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ) العنكبوت ٤١ .

فإذا وقف السامع على قوله (وإن أوهن البيوت) فإنه يعلم لا محالة أن بعده بيت العنكبوت ، فدل المتقدم منه على المتأخر .

ومن ذلك قوله تعالى .

(فمنهْم مَنْ أرسلْنَا عليه حَاصِباً ومنهْم مَنْ أخذَتْهُ الصيْحَةُ ومنهم من خَسَفْنَا بِهِ الأرضَ ومنهم مَنْ أغرقْنَا وما كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكنْ كانُوا أَنفسَهُمْ يَظْلِمون) العنكبوت ٤٠ .

فإذا وقف السامع على قوله (ولكن كانوا) عرف لا محالة أن بعده ذكر ظلم النفوس ؛ لأن الكلام الأول فيه ما يدل عليه دلالة ظاهرة .

وقوله تعالى :

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بما كَفَرُوا وهَلْ نُجَازِي إلاّ الكَفُور) سبأ ١٧ فإذا وقف السامع على قوله (وهل يجازي) بعد الأحاطة بما تقدم من الكلام ، فإنه يعلم بالضرورة ان بعدها لا يكون (إلا الكفور) .

وعلى ذلك ورد قوله تعالى :

(هلْ جزاءُ الإحسَانِ إلا الإحْسَان) الرحمن ٦٠ فإن السامع يتحقق بعد ذكر قوله تعالى (هل جزاء الأحسان) لا يكون (إلا الإحسان) ؟ لما في ذلك من الملاءمة الشديدة والتناسب الواضح .

وقوله تعالى : (أفرأيتُمْ ماَ تَحْرُثُون ، أ أنتم تَزْرَعُونَهُ أمْ نَحْنُ الزارِعُون ، لوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاه حُطَاماً فَظَلْتُمْ تفكَّهُون) الواقعة ٦٣ – ٦٥ فذكر الحرث يدل على الزرع ، والاعتداد بكونه سبحانه لم يجعله حطاماً ملائم لحصول التفكه به .

وقوله تعالى : (أَفرأيْتمُ الماءَ الذي تَشْرَبُون ، أ أنتم أنزلْتُمُوه مِن الْمُزْنِ أمْ نحن الْمُنْزِلُون) الواقعة ٦٨ .

فذكر الماء يدل على المطر الذي ينزل من السحاب بقدرة الله .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :

« فما بَعْد الموت من مُسْتَعْتِب ، وما بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة والنار» .

فإن السامع إذا وقف على قوله (فما بعد الدنيا من دار) تحقق لا محالة أن بعده (إلا الجنة والنار) ؛ لما بينهما من شدة الملاءمة وعظيم المناسبة .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

ولربما اعتصمَ الحليمُ بجاهلٍ   لا خيرَ في يُمْنى بغير يَسارِ

فإذا سمع السامع صدر البيت ، ثم وقف على قوله (لا خير في يمنى) تأكد أن ما يأتي بعده قوله (بغير يسار) لما فيه من الملاءمة والمناسبة .

ومن ذلك قول زهير :

وأعلمُ مـا في اليـوم والأمسِ قبلَـه ولكنني عـن علـم مـا في غـد عَـمِ

فالأزمنة ثلاثة : ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، فلما ذكر حكم الماضي والحاضر ، عرف أنه لا بد من ذكر المستقبل وحكمه ، وهو الجهل بما يقع فيه ، فلأجل ذلك كان الأرصاد فيه سابقاً معلوماً وهو أنه (عن علم ما في غد عـم) .

ومن هذا النوع قول البحتري :

فـإذا حـاربـوا أذلّـوا عـزيـزاً وإذا سالَمـوا اعـزوا ذليـلا

فإن صدر البيت إلى قوله (وإذا سالموا) يدل على أن ما يأتي بعد ذلك لا بد أن يكون أعزوا ذليلاً ؛ إذ لا يفد إلى الذهن غير ذلك .

* * *

المشاكلة :

وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته . كقوله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سيئةٌ مِثْلُها) الشورى ٤٠ .

فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة ، والأصل : وجزاء سيئة عقوبة مثلها .

وقوله تعالى : (تَعْلَمُ ما فيِ نَفْسِي ولاَ أعْلَمُ ما في نَفْسِك) المائدة ١١٦ .

والأصل : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك ، فالله تعالى لا تستعمل في حقه لفظة النفس ، إلا انها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس .

وقوله تعالى :

(فَمنْ اعْتَدى عليكُمْ فَاعتَدُوا عليْهِ بِمثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ) البقرة ١٩٤ أي فعاقبوه وقوله تعالى :

(ومَكَرُوا ومَكَرَ الله واللهُ خَيْرُ الماكِرين) آل عمران ٥٤ .

أي : أخذهم الله بمكرهم فيمد لهم في طغيانهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . ويقول أحد الباحثين[1] : و« لكنني أرى القرآن أجلّ من أن يسمى الشيء بغير اسمه لمجرد وقوعه في صحبته ، بل أرى هذا التعبير يحمل معنى ، وجيء به ليوحي إلى القارىء بما لا يستطيع أن يوحي به ولا أن يدل عليه ما قالوا : إنه الأصل المعدول عنه . فتسمية جزاء السيئة سيئة ؛ لأن العمل في نفسه سوء ، وهو يوحي بأن مقابلة الشر بالشر ، وإن كانت مباحة ، سيئة يجدر بالأنسان الكامل أن يترفع عنها ، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى ، وعلى هذا النسق تماماً ورد قوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

ومما هو جدير بالذكر أن مثل هذه الآيات[2] عدها قوم من مسائل علم البيان فهي مجاز مرسل علاقته السببية : من إطلاق السبب على المسبب .

وعدّها آخرون من مسائل علم المعاني ، من حيث مخالفتها لمقتضى الظاهر وهي الآن من مسائل علم البديع ، من حيث إنها توجب تغير اللفظ . ومن المشاكلة قوله صلى الله عليه وسلم :

(أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، فعليكم من الأعمال بما تُطيقون ، فإن الله لا يمَلّ حتى تَملّوا) فعبر عن قطع الثواب بالملل ، ولوقوعه في صحبته وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولاً .

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

اَلا لا يجهلَــــنْ أحــــدٌ علينـــــا   فنجهـلَ فوقَ جهْـلِ الجاهِلينـــا

فسمى جزاء الجهل جهلاً مشاكله ؛ لأن الزيادة على جهل الظالم في مكافأة

---

(١) من بلاغة القرآن - أحمد بدوي ص ١٨٤ ط نهضة مصر ٣ .

(٢) عقود الجمان - السيوطي ٩١/٢ ط مصطفى الحلبي .

ظلمه ، ليس ظلماً في اعتقاد الشاعر ؛ لأن الجهل عنده ما لا يكون له سبب يحال عليه عادة ، فإذا كان له سبب ، فليس بجهل .

* * *

المزاوجة :

وهي أن يزاوج المتكلم بين معنين في الشرط والجزاء .

أي : يجعل معنيين واقعين في الشرط والجزاء مزدوجين : في أن يرتب على كل منهما معنى رتب على الآخر ، كقول ابن معصوم :

إذا تـزاوجَ إثمـي ، فـاقتضى نِقَمِي حقّقْتُ فيهم رَجائي ، فاقتضي نِعَمي

زاوج بين تزاوج الأثم وهو الشرط ، وبين تحقيق الرجاء وهو الجزاء ، بأن رتب عليهما اقتضاء شيء : اقتضاء النقمة أو النعمة .

ومثله قول البحتري :

إذا احتربتْ يوماً ، ففاضتْ دماؤها تذكّرت القُرْبَى ، ففَاضَتْ دُموعُها

زاوج بين الاحتراب وتذكر القربى الواقعين في الشرط والجزاء ، في ترتب فيضان شيء عليهما : فيضان الدماء أو الدموع .

هذا هو معنى المزاوجة ، وليس معناها كما يسبق إلى الوهم[1] :

أن يجمع بين معنيين في الشرط ، ومعنيين في الجزاء ، كما جمع في الشرط بين الاحتراب وفيضان الدماء ، وفي الجزاء بين تذكر القربى وفيضان الدموع .

ومن المزاوجة في القرآن ما ذكره السيوطي[2] في قوله تعالى :

(واتْلُ عليهمْ نَبأَ الذي آتيْناه آياتِنا فانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِن

(١) أنوار الربيع ٦/١٠١ .
(٢) الأتقان في علوم القرآن ١/٩٤ .

الغَاوِ ين) الأعراف ١٧٥ قال : ومن المزاوجة هذه الآية » .

فقد زاوج بين إتيان الآيات واتباع الشيطان في الشرط والجزاء ، في ترتب شيء واحد عليهما وهو الغواية ، والانسلاخ عن الآيات في ذاته غواية .

* * *

العكس والتبديل :

وهو أن يُقدّم جزءٌ في الكلام ثم يُؤخر :

كقوله تعالى : (ما يَفتَحِ اللهُ للناسِ من رَحْمةٍ فلا مُمْسِكَ لها ، وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له مِنْ بَعْدِهِ) فاطر ٢ .

وقوله تعالى : (تُولِجُ اللَّيلَ في النهارِ وتُولِجُ النهارَ في اللّيلِ) آل عمران ٢٧
وقوله عليه السلام : (جارُ الدار أحقُ بدارِ الجار) .

وقوله عليه السلام : (إن الإنسان ليسرّه دَرْكُ ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكنْ ليدركه) .

وقيل لمريض : كيف أنت ؟ فقال : أجد ما لا أشتهي ، وأشتهي ما لا أجد ، وأنا في زمان سوء ، من وجَدَ لم يَجُدْ ، ومن جاد لم يَجدْ .

ومنه قول أبي العيناء لأحد الوزراء : أنت والله تقرب منا إذا احتجنا إليك ، وتبعد عنا إذا احتجت إلينا .

ومن العكس والتبديل قول الشاعر الأضبط :

ويجمـــع المـــالَ غيـــرُ آكلـــه ويأكـل المالَ غيـرُ مَن جمعـهْ
ويقطـــع الثـــوبَ غيـــرُ لابسه ويلبس الثـــوبَ غيـــرُ من قطعهْ

وقول بعضهم : إني أكره للرجل أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا عن مقدار لسانه .

ومن غريب أسلوب هذا النوع ما ذكره ابن أبي الأصبع[1] في قوله تعالى :

﴿ ومَنْ يعْمَلْ مِن الصَّالِحات من ذكَرٍ أوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ولاَ يُظْلَمونَ نَقِيرا ، ومن أحْسَنُ دِيناً ممن أسْلَمَ وجهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِن ﴾ فإن نظم الآية الأخيرة عكس نظم الآية الأولى ؛ لتقديم العمل في الأولى عن الإيمان ، وتأخره في الثانية عن الإسلام .

هذا هو العكس والتبديل اللفظي .

ومن هذا النوع صنف معنوي استخرجه ابن أبي الأصبع :

وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى لنفسه أو لغيره فيعكسه[2] .

كقول الأخطل :

قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجته ... وقد يكونُ مع المستعجِل الزَّلَلُ

فقال الآخر :

وربما فات بعض الناس أمرهم ... مع التأني وكان الحَزْمُ لو عجلوا

ومن هذا الصنف ما قاله أحد الشعراء :

إذا ما رأيتَ فتىً ماجدا ... فظنَّ بعقل أبيه السَّخَفْ
فقد يلد النُجبُ غيرَ النجيب ... وهل يلدُ الدرُّ إلاّ الصدفْ

هذا الشاعر يصف الأبناء بالذكاء والآباء بالسخف ، فيأتي شاعر آخر ويعكس هذا المعنى ، فيصف الآباء بأنهم أمجاد ، والأبناء بأنهم مجردون عن الفضائل فيقول :

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٩٢/١ ، بديع القرآن ١١١ سورة المدّثر ١٢٤ .

(٢) خزانة الأدب ١٦٣ ، أنوار الربيع ٣٥١/٣ .

إذا ما رأيت فتى ماجدا فكن بابنه سيّىءَ الاعتقاد
فلستَ ترى مِن نجيب نجيبا وهل تلد النارُ غيرَ الرماد

* * *

التورية :

وهي : أن تكون الكلمة محتملة لمعنيين ، ويستعمل المتكلم أحد هذين الاحتمالين ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله[1] .

أو يكون للكلمة معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

(قالوا تَالله إنّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القَديم) يوسف ٩٦ فكلمة الضلال تحتمل معنيين : ضد الهدى ، وحب يعقوب عليه السلام لابنه يوسف ، فاستعمله أولاد يعقوب بمعنى ضد الهدى تورية عن الحب ؛ ليعلم أن المراد ما أهملوا لا ما استعملوا .

أو نقول على التعريف الثاني :

كلمة الضلال لها معنيان : قريب وهو ضد الهدى ، وبعيد : وهو الحب ، والمراد البعيد منهما .

ومن التورية قوله تعالى :

(اذْكُرْنِي عندَ ربِكّ فأنْسَاهُ الشيطانُ ذِكْرَ ربّه) يوسف ٤٢ فكلمة (ربه) لها معنيان :

قريب بمعنى الإله سبحانه وتعالى . وبعيد بمعنى الملك وهو المراد في الآية .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في خروجه إلى بدر ، وقيل له : من أنتم ؟ فلم

---

(١) بديع القرآن ١٠٢ ، الإتقان ٨٣/١ ، خزانة الأدب ٢٣٩ ، أنوار الربيع ٥/٥ ، نهاية الأرب ١٣١/٧ عقود الجمان ٩٤/٢ .

يرد أن يعلم السائل ، فقال : من ماء ، أراد : أنا مخلوق من ماء ، فورَّىَ عنه باسم قبيلة من العرب .

وقد سئل أبو بكر رضي الله عنه عن الرسول حين خروجهما من الغار إلى المدينة :

يا أبا بكر من هذا ؟ فقال : « هادٍ يهديني السبيل » . فالمعنى القريب : يهديني الطريق . والمعنى البعيد : يهديني سبيلَ الخير وهو المراد .

يقول الزمخشري : لا ترى باباً في البيان أدق ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات من كلام الله تعالى ، وكلام الأنبياء والصحابة .

ويقول الصفدي : ومن البديع ما هو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام ، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرمى المرام .

ومن أمثلة التورية .

قوله تعالى : (وَيَطُوفُ عليهمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون) الدهر ١٩ .
أي مقرطون تجعل في أذانهم الأقراط ، والحلق الذي في الأذن يسمى قرطاً وخلدة ، والسامع يتوهم أنه من الخلود .

وقوله تعالى : (وَيُدْخِلُهُمْ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) القتال ٦ السامع يتوهم أن المراد العرف الذي هو الطيب . ولكنه أراد المعنى البعيد وهو أنه علمهم منازلهم فيها .

وقوله تعالى : (يُبَشِّرُهُمْ ربُّهم برحمةٍ منه ورِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ) التوبة ٢١ فذكر « رضوان » مع الجنات يوهم إرادة خازن الجنات .
والمراد : الرضوان الذي هو ضد السخط .

وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ من بعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيد) الشورى ٢٨ .

فكلمة الولي تحتمل أن تكون من أسماء الله تعالى ، ومعناه : الولي لعباده بالرحمة والمغفرة ، والحميد : المحمود في السراء والضراء . وعلى هذا فالضمير « وهو » راجع إلى الله سبحانه وتعالى .

ويحتمل أن تكون كلمة الولي من أسماء المطر ، وهو مطر الربيع . والحميد أي : المحمود ، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث .

يقول العلوي[1] :

والتورية لا تخلو عن تفنن في الكلام واتساع فيه ، وتدل على تصرف بالغ ، وقوة على تصريف الألفاظ ، واقتدار على المعاني ، فهي غير خالية عن فن من فنون البلاغة وعلم البديع ، وقد جرت عادة العلماء من أهل البلاغة على ذكرها والكلام عليها .

وقد تكون التورية مرشّحة أو مبيّنة أو مجرّدة . فالتورية المرشّحة : هي التي يذكر فيها ما يلائم المعنى القريب المورَّى به ، فيرشحه ويقويّه وهو غير مراد ، وإنما المراد هو المعنى البعيد المورَّى عنه ، كقول الصاحب عطاء الملك في امرأة اسمها شجَر :

يا حبذا شجر وطيب نسيمها لو أنها تُسقى بماء واحد

فكلمة شجر في هذا البيت لها معنيان :

قريب : وهو ما له ساق من النبات ، وقد رشحه ما يلائمه وهو طيب النسيم ، والسقي بماء واحد ، وهذا المعنى غير مراد .

وبعيد : وهو اسم المرأة التي وري عنها ، وهو المقصود في البيت .

والتورية المبينة : هي التي يذكر معها ما يلائم المعنى البعيد الموري عنه ، يقول ابن سناء الملك :

---

(١) الطراز: ٦٣/٣ .

أمـا والله لـولا خـوفُ سخطـك لهانَ عليّ مـا ألقـي بـرهطـكْ
ملكـت الخـافقـين فتهـت عجبـا وليس همـا سوى قلـبي وقرطكْ

فكلمة الخافقين لها معنيان :

قريب : وهما المشرق والمغرب ، وهذا غير مراد .

وبعيد : وهما قلبه وقرط محبوبته ، وهو المعنى الموري عنه ، وقد نص عليه في الشطرة الأخيرة من البيت .

والتورية المجردة : هي التي لا يذكر معها ما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد ، ومنه ما ذكره ابن الأثير في النهاية : فقد أخبر أن الرسول عليه السلام وأبا بكر رضي الله عنه حين كانا في طريق الهجرة من مكة إلى المدينة لقيهما رجل فقال من أنتم ؟ فقال أبو بكر : باغ ، وهاد .

فالمعنى القريب : أنه يبغي الأبل والرسول يهديه الطريق .

والمعنى البعيد : أنه يبغي الهداية والرسول يهديه عن الضلال وهو المراد ، وليس في التورية هنا ما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد .

وأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى : (الرحْمَنُ علىَ العرْش اسْتَوَى) طه ٥ فإن الاستواء يطلق على معنيين :

الأستقرار في المكان ، وهو المعنى المقصود الموري عنه . والتورية هنا لم تجامع شيئاً مما يلائم الموري به أو الموري عنه .

الاستخدام :

وفيه مذهبان :

أحدهما : أن يؤتي بلفظ له معنيان أو أكثر مرادا به أحد معانيه ، ثم يؤتي بضمير مراداً به المعنى الآخر ، أو بضميرين مراداً بأحدهما أحد المعاني وبالآخر

المعنى الآخر ، وهذا هو مذهب الخطيب ومن تبعه[1] . كقوله تعالى :

(ولَقدْ خَلَقْنَا الإنسْانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِين ، ثم جَعَلْنَاهُ نطفةً في قَرَارٍ مَكِين) المؤمنون ١٢ ، ١٣ .

فالمراد بالأنسان في الآية آدم عليه السلام ، ثم أعاد الضمير عليه مراداً به ولده .

ومنه قوله تعالى :

(يا أَيُّها الذين آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أشْياءَ إنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وإنْ تَسْأَلُوا عَنْها حينَ يُنزلُ القرآنُ تُبْدَلَكُمْ عفَا اللهُ عَنْهاَ واللهُ غفورٌ حَليم ، قَدْ سَأَلَهاَ قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثم أصْبَحُوا بِها كَافِرين) المائدة ١٠١ ، ١٠٢ فالضمير في قوله (قد سألها) يعود على (أشياء) ، والذي سأل عنه الأولون أشياء آخر تختلف عن الأشياء التي سأل عنها الصحابة المؤمنون ونهوا عن سؤالها[2] .

ومن هذا النوع قول البحتري :

فسقـي الغَضَـا والساكِنيــهِ وإنْ همُ   شبّــوه بــين جــوانـح وقلوبِ

فالغضا يطلق على معنيين : واد بنجد ، وشجر معروف ، وقد عاد عليه ضميران ، أحدهما في « الساكنيه » والآخر في « شبوه » فالضمير في الساكنية يعود على المكان ، وفي شبوه يعود على الشجر .

ثانيهما : أن يؤتى بلفظ مشترك ، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ، ومن الآخر الآخر . وهذه طريقة بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) في المصباح التي طرقها ابن أبي الأصبع من قبل (ت ٦٥٤ هـ) مثل قوله تعالى : (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب ، يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وعنده أُمُّ الكتاب) الرعد ٣٨ ، ٣٩ فلفظة كتاب تحتمل معنى الأجل المحتوم معنى الكتاب المكتوب ، وقد توسطت بين كلمتي أجل ويمحو ، فلفظة أجل تخدم المعنى الأول ، ولفظة يمحو تخدم المعنى الثاني .

---

(١) الايضاح ٥٠٢ ، أنوار البديع ٣٠٨/١ .
(٢) الاتقان ٨٤/١ .

ومنه قول المعري :

وفقيـــه ألفـــاظـــه شِدْنَ للنُّعْمَـــا ن مـا لـم يَشِدْه شعـــرُ زيـــادِ

ومعنى البيت أن ألفاظ هذا الفقيه شادت لأبي حنيفة النعمان من حسن الذكر ما لم يشده شعر زياد للنعمان بن المنذر . وزياد هو النابغة الذبياني فكلمة « النعمان » تحتمل معنى أبي حنيفة كما تحتمل معنى النعمان بن المنذر وقد توسطت كلمتي « فقيه » و« شعر زياد » والأولى تخدم أبا حنيفة ، والثانية تخدم النعمان بن المنذر .

والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد ، وهو استعمال المعنيين بضمير وبغير ضمير ، وهذا هو الفرق بين الاستخدام والتورية ، فإن المراد بالتورية هو أحد المعنيين ، وفي الاستخدام كل من المعنيين مراد[1] .

والأستخدام أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية وأحلى موقعاً في الأذواق السلمية ، وقلّ من ظفر به ؛ لصعوبته وقلة انقياده .

وكثيراً ما تلتبس التورية بالاستخدام ، والفرق بينهما :

أن التورية يستعمل فيها اللفظ بمعنيين فتريد أحدهما وتهمل الآخر .
وأن الاستخدام يستعمل فيه اللفظ بمعنيين وتريدهما معاً .

اللف والنشر :

وهو : ذكر متعدد على جهة التفصيل : بالنص على كل واحد ، أو على جهة الأجمال : بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، وهذا هو اللف . ثم ذكر ما لكل واحد من المتقدم من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل واحد إلى ما يليق به ، وهذا هو النشر .

وذكر المتعدد على جهة التفصيل ضربان :

الأول : أن يكون النشر علىترتيب اللّف ، بأن يكون الأول من النشر للأول من

(١) خزانة الأدب ٥٢ ، ٥٤ .

اللف ، والثاني للثاني وهكذا ، وهذا الضرب هو الأكثر وروداً وشهرة .

والثاني : أن يكون النشر على غير ترتيب اللّف .
فمما جاء على الترتيب قوله تعالى :

(ولا تجعلْ يَدكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولاَ تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) الاسراء ٢٩ .

فاللوم راجع إلى البخل ، « ومحسوراً » راجع إلى الإسراف ؛ لأن معنى محسوراً : منقطعاً لا شيء عندك .

وقوله تعالى :
(أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى ، وَوجَدكَ ضالاً فهَدَى ، وَوجدَكَ عائلاً فأغْنَى ، فأمَّا اليَتيمَ فَلاَ تقْهَر ، وَأَمّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ، وَأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحدِّثْ) الضحى ٦ - ١١ .

فإن قوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، راجع إلى قوله : ألم يجدك يتيماً فآوى . وأما السائل فلا تنهر ، راجع إلى قوله : ووجدك ضالاً فهدى ؛ لأن المراد بالسائل هو السائل عن العلم كما قال المفسرون .

وأما بنعمة ربك فحدث ، راجع إلى قوله : ووجدك عائلاً فأغنى
ومنه قول الشاعر :

ألست أنت الذي مِنْ وَرْد وجنته ... وَوِرْدِ راحته أجنى واغترفُ

فكلمة أجنى تعود على الوَرد ، واغترف تعود على الوِرد بمعنى العطاء . ومن هذا النوع قول الشاعرة حميدة الأندلسية :

ولما أبى الواشون إلا فراقَنا ... وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كلَّ غارة ... وقلّ حُماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ... ومن نفسي ، بالسيف والسيل والنار

فكل منها يعود على ما يليق به على الترتيب . وغاية القصد هنا أن يكون اللف والنشر

في بيت واحد خالياً من الحشو وعقادة التركيب ، جامعاً بين سهولة اللفظ والمعاني المخترعة[1] .

والضرب الثاني من المفصّل :

هو ما كان النشر فيه على غير ترتيب اللف ، كقوله تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوه ، فأماَّ الذين اسْوَدّتْ وجوهُهُمْ أَكفرتُم بعْدَ ايمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بما كنتمْ تَكْفُرُون ، وأمّا الذين ابيضَّتْ وجوهُهُمْ فَفِي رحْمَةَ الله هُمْ فِيهاَ خَالِدُون) آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧ في اللف ذكر البياض أولاً والسواد ثانياً .

وفي النشر ذكر السواد أولاً والبياض ثانياً على غير ترتيب اللف .

وكذلك قوله تعالى :

(أمْ حَسِبْتُمْ أن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يأْتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُم البأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حتَّى يقولَ الرسولُ والذينَ آمنوا مَعه متَى نَصْرُ الله ؟ ألاَ إنّ نَصْرَ الله قَرِيب) البقرة ٢١٤ .
متى نصر الله هو قول الذين آمنوا .
ألا أن نصر الله قريب هو قول الرسول .

أما اللف والنشر المجمل فهو : أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، وهذا النوع لا يتبين فيه ترتيب ولا عكس ، كقول ابن أبي الحديد :

لولا ثلاثٌ لم أخفْ صرعتي ... ليست كما قال فتى العبدِ
أن أنصر التوحيد والعدلَ في ... كل مكان باذلاً جَهدي
وأن أناجي الله مستمتعاً ... بخلوة أحلى من الشهد
وأن أتيه الدهر كبرا على ... كل لئيم أصعّر الخدَ
لذاك لا أهوى فتاة ولا ... خمراً ولا ذا ميعة نهد

(١) خزانة الأدب ٦٨ .

فذكر في البيت الأول كلمة « ثلاث » على سبيل الأجمال ، ثم عدّد هذه الثلاثة واحداً بعد الآخر وهي : نصرة التوحيد والعدل ، ومناجاة الله في خلوة ، وتصعير خده على كل لئيم .

ومثل ذلك قول القيسي الأندلسي :

لـولا ثـلاثٌ هـن والله مـن ... أكبـر آمـالي في الـدنيـا
حـجٌ لبيـت الله ارجـو بـه ... أن يقبـلَ التـوبـةَ والسعْيـا
والعـلـمُ تحصيـلاً ونشراً ، إذا ... رَوَيْـتُ أوْ سَعْـتُ الـوري ربّا
وأهـلُ وُدّ أسـأل اللـه أن ... يمتّـع بـالبقيـا إلى اللُّقيـا
مـا كنـت أخشى المـوت أنّـى أنني ... بـل لـم أكـن ألتـذّ بالمحيّـا

وأجمل من هذا كله قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(انما يُؤتَى الناسُ يومَ القيامة من احدى ثلاث)
أمـا مـن شُبْهَة في الـديـن ارتـكبـوها .
أو شهـوةٍ لـلـذّة آثـروهـا .
أو عصبيّـة لحميّـةً أعْمَلـوهـا .
فـإذا لاحـت لـكـم شُبْهَـةٌ فـاجلـوهـا بـاليقيـن ،
وإذا عرضتْ لكم شهوةٌ فاقْمَعُوها بالـزهـد ،
وإذا عنّـت لـكـم عصبيّة فادرأوها بالعفـو ،

وكذلك قوله عليه السلام :

إن المرء بيْن يومين :
يوم قد مضى أُحصي فيه عمله فخُتّم عليه .
ويـوم قـد بقـيَ لا يـدري لعلـه لا يصلُ إليه .

فقوله بين يومين لـف مجمل ، لاشتمالهما على ما يكون ماضياً ومستقبلاً ، وهذه فائدة اللف ، ثم انه نشرهما بعد ذلك بقوله : يوم قد مضى أحصى فيه عمله ، فهذا يتناول الماضي ، ويوم قد بقي لا يدري ما يفعل فيه ، وهذا يتناول المستقبل .

فانظر ما حواه هذا الكلام من لطائف الأجمال والتفصيل ، واشتمل عليه من محاسن اللف والنشر ، ومن تأمل كلامه عليه السلام وجد فيه ما يكفي ويشفي من ذلك .

* * *

الجمع[1] :

وهو أن يُجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد .
كقوله تعالى : (المالُ والبَنُون زينةُ الحياة الدُّنْيا) الكهف ٤٧ جمع المال والبنون في الزينة .

وكقوله تعالى : (الشمسُ والقمرُ بحُسْبان ، والنَجْمُ والشَجرُ يسْجُدَان) الرحمن ٥ ، ٦ فقد جمع بين الشمس والقمر في الحسبان ، وجمع بين النجم والشجر في السجود .

والمراد بالحسبان : الحساب المعلوم المقدر الذي لا يسبب اختلالاً ولا اضطراباً ، والمراد بالسجود : الانقياد .

التفريق :

وهو أن يباين بين أمرين أو أكثر من نوع واحد اشتركت فيه ، وقد فرق بينهما ؛ ليفيد زيادة أحدهما على الآخر .

كقوله تعالى :

(وما يَسْتَوى البَحْرَانِ هَذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهَـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) فاطر ١٢ .

وكقوله تعالى :

(١) الاتقان ٩٢/١ ، عقود الجمان ١٠٨/٢ ، خزانة الأدب ٣٥٧ أنوار الربيع ١٦٨/٥ .

(وَهُوَ الذي مَرجَ البَحْرين : هَذا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وهَذا مِلْحٌ أُجَاج) الفرقان ٥٢ فقد فرق بين البحرين فجعل أحدهما عذباً والآخر ملحاً .

الجمع مع التفريق :

وهو : أن يدخل شيئان في معنى واحد ، ويُفرق بين جهتي الأدخال .

كقول الفخر عيسى :

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصّة دون قصة
فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي

فقد جمع بين الدمعين في الشبه ثم فرق بينهما بأن دمعها أبيض ، فإذا جرى على خدها صار أحمر بسبب احمرار خدها ، وأن دمعه أحمر لأنه يبكي دما ، وجسده من النحول أصفر ، فإذا جرى عليه الدمع حمره .

التقسيم :

وهو استيفاء المتكلم أقسام الشيء بحيث لا يغادر شيئاً . كقوله تعالى :

(وكنتمْ أزواجاً ثَلاثة ، فأَصْحَابُ المَيْمنَة ما أصْحَابُ المَيْمَنَة ، وأصحاب المَشْأَمة ما أصحاب المشأمة ، والسابِقُونَ السابقون) الواقعة ٧ – ١٠ فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

وكذلك قوله تعالى : (لَهُ ما بَيْنَ أيْدينا وما خَلْفَنا وما بَيْنَ ذَلِكَ وما كانَ رَبُّكَ نِسيًّا) مريم ٦٤ فاستوفى أقسام الزمان ولا رابع لها .

وقوله تعالى : (هو الذي يُرِ يكُمْ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً) الرعد ١٢ فليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ولا ثالث لهما .

وقوله تعالى : (الذين يَذْكُرون اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلىَ جُنُوبهم) آل عمران

١٩١ فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات .

ومنه الآية الكريمة التي اعتاد علماء البديع أن يستشهدوا بها وهي قوله تعالى : (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيهبُ لِمَنْ يشاءُ الذكُورَ ، أو يُزَوِجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثاً ويَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً) الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ؛ لأنه سبحانه إما أن يفرد العبد بهبة الأناث ، أو بهبة الذكور ، أو يجمعهما له ، أو لا يهب شيئاً .

وجاءت كل عطية بلفظ الهبة ، وتدرج فيها من الأدنى للأعلى . فبدأ بهبة الأناث ، ثم هبة الذكور ثم هبتهما معاً .

وعدل عن لفظ الهبة إلى لفظ آخر وهو « ويجعل » لما فيه من معنى الحرمان فكان هذا العدول للتغاير بين المعاني .

وبدأ بالأناث : إما جبراً لهن لاستثقال الأبوين لمكانهن ، أو لضعفهن ، وعند الضعف والعجز تكون العناية أتم ، أو أنه قدم ذكر ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدونهن ، أي هذا النوع الحقير عندكم مقدّم عندي في الذّكر .

وتأمل كيف عرف سبحانه الذكور بعد تنكير الأناث ، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم ، وجبر نقص المتأخر بالتعريف ، فإن التعريف تنويه .

الجمع مع التقسيم :

وهو : الجمع بين أشياء متعددة تحت حكم واحد ، ثم يقسم ، أو العكس أي : يقسم ثم يجمع .

فمن الأول قوله تعالى :

(ثم أورثْنَا الكتابَ الذين اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فمنهم ظالِمْ لنفْسِه ، ومنهم

مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخَيْرات) فاطر ٣٢ .

أي جعلنا القرآن الموحى به إليك ميراثاً منك لأمتك التي اصطفيناها على سائر الأمم ينتفعون بما فيه من الأحكام والمواعظ والأمثال .

فجمع بينهم في الاصطفاء ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع :
ظالم لنفسه يرتكب صغائر الذنوب الذي يؤدي إلى نقصانه من الثواب .
ومقتصد معتدل في أمر الدين لا يميل إلى إفراط أو تفريط .
وسابق لغيره في أمور الدين فترجح حسناته على سيئاته . وكلهم من أهل الجنة .

ومن ذلك بيت صفيّ الدين :

أبادهم : فلبيت المال ما جمعُوا والرُّوح للسيف والأجساد للرخَم

جمع بينهم في الابادة ثم قسم :

ما جمعوه من مال لبيت المال ، وأرواحهم للسيف ، وأجسادهم للرخم .

وقول ابن جابر :

والمال والماء في كّفيْه قد جريا هذا لراجٍ ، وذا للجيش حين ظمى

فقد جمع بين المال والماء في الكفين ثم قسم :
المال لمن يرجوه من الفقراء ، والماء ليروي به الجيش .

الجمع مع التقسيم والتفريق :

كقوله تعالى : (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نفسٌ الاّ باذْنِه فمنهم شَقِيٌّ وسعِيد ، فأما الذين شَقُوا ففي النارِ لهم فيها زفيرٌ وشَهيق ، خالدِينَ فيها ما دامتْ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّك إنّ ربَّكَ فعَّالٌ لمَا يُرِيد ، وأما الذين سُعِدُوا فَفِي الجنّةِ خالدِينَ فيها ما دامتْ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّك عَطَاءً غيْرَ مجْذُوذ) هود ١٠٥ – ١٠٨ .

فالجمع في كلمة نفس ، أي كل نفس ، لأن النكرة في سياق النفي تعم .
والتفريق في قوله : فمنهم شقي وسعيد .

والتقسيم ففي قوله : فأما الذين شقوا صفتهم كذا ، وأما الذين سعدوا صفتهم كذا .

يقول العلوي[1] : هذه الأمور الثلاثة : التفريق والجمع والتقسيم من عوارض البلاغة ، وإذا وقعت في الكلام بلغ مبلغاً عظيماً في حسن التأليف وإعطاء الفصاحة حقها .

التجريد :

يقول ابن جنى[2] : اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن ، وضرب من العربية غريب ، وقد وجد أستاذه أبا علي الفارسي مولعاً به معنياً .

والتجريد هو : أن تأتي بكلام يكون ظاهره خطاباً لغيرك وأنت تريده خطاباً لنفسك ، فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك ، وأخلصته لغيرك .

مثال ذلك قول الشاعر :

إلامَ يـراك المجـدُ في زيّ شاعـــــرٍ ... وقـد نحلـتْ شوقاً فروعُ المنابـرِ
كتمـت بعيـب الشعرِ حِلماً وحكمةً ... ببعضها ينقـادُ صعـبُ المفـاخـرِ
أمَـا وأبيـك الخيـرِ انـك فـارس الـ ... مقـال ومحيي الدارسات الغوائـرِ
وأنـك أعييـت المسامـع والنُهـــى ... بقـولـك عمـا في بطـون الـدفـاتـرِ

ألا تراه في جميع هذه الخطابات ظاهرها يشعر بأنه يخاطب غيره ، والغرض خطاب نفسه .

---

(١) الطراز ١٤١/٣ .

(٢) الخصائص – ابن جنى ٤٧٣/٢ ط دار الكتب .
الطراز ٧٣/٣ ، البرهان في علوم القرآن – الزركشي ٤٤٨/٣ ط عيسى الحلبي .
عقود الجمان ١١٣/٢ ، أنوار الربيع ١٥٣/٦ .

هذا نوع من التجريد ، وهناك نوع آخر :

وهو أن تجعل الخطاب لنفسك على جهة الخصوص دون غيرها ، كقول الشا

أقــول للنفس تــأساءً وتعْــزيـــــةً احدى يدىّ أصابتني ولــم

فقد جرد من نفسه شيئاً آخر ووجه إليه الخطاب .

وأمثلة التجريد غزيرة سواء في القرآن الكريم ، أو في الشعر ، أو في محا الناس . وقد نبه السبكي على أن التجريد لا يختص بحال الخطاب ، وإنما بهذا الأسم لكونه أكثر استعمالاً وورودا من غيره .

فمن أمثلة القرآن ، قوله تعالى :

(إنّ في خلْق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ ا الألْباب) آل عمران ١٩٠ .

فظاهر الآية ان في العالم من نفسه آيات ، وهو عينه ونفسه تلك الآيا وكقوله تعالى : (واعلمْ أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم) البقرة ٢٦٠ وانما هذا ناب قوله : وأعلم أني عزيز حكيم .

وقوله تعالى : (لقدْ كانَ لكُم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) الأحزاب ورسول الله نفسه أسوة حسنة أي : قدوة .

وقوله تعالى : (لَهُمْ فيها دارُ الخُلْد) فصلت ٢٨ .

ليس المعنى أن الجنة فيها دار خلد ، وغير دار خلد ، بل كلها دار خا فكأنك لما قلت : في الجنة دار الخلد اعتقدت أن الجنة منطوية على دار نعيم و أكل وشرب وخلد ، فجردت منها هذا الواحد .

وذكر الزمخشري[1] أن في قوله تعالى :

(فإذا انشقَّتْ السماءُ فكانتْ وردةً كالدهان) الرحمن ٣٧ فيها تجريد

---

(١) الكشاف الزمخشري ٣٥٨/٤ .

قراءة رفع وردة بمعنى حصلت منها سماء وردة .

وذكر ابن جنى في قراءة ابن عباس عن قوله تعالى :

(يرثني وارثٌ من آل يعقوب) مريم ٦ أنه من التجريد وذلك انه يريد : وهب لي من لدنك ولياً يرثني منه وارث من آل يعقوب ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرد منه وارثاً .

والتجريد على أقسام :

أحدها : أن يكون بمن التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، كقولهم : مررت منه بالرجل الكريم والنسمة المباركة . جردوا من الرجل الكريم والنسمة المباركة آخر مثله متصفاً بصفة البركة ، وعطفوه عليه كأنه غيره ، وهو هو في نفس الأمر .

ومن ذلك قول الشاعر :

لي منهـــم سيــف إذا أجــرّدتـــــه يـومـا ضربـت بـه رقابَ الأعصـرِ

الثاني : أن يكون بالباء ، كقول الشاعر :

دعـوت كُلَيْبـا دعـوةً فكـأنمـــا دعـوت بـه ابن الطْور أو هو أسرع

جرد من كليب شيئا يسمى ابن الطور وهي الصدى ، يريد به سرعة اجابته .

الثالث : أن يكون بغى ، كقول الشاعر :

أفـاءتْ بنـو مروان ظلمـاً دمـاءَنـا وفي الله إن لـم يعدلـوا حَكَمٌ عدْلُ

فجرد منه تعالى حكماً عدلاً ، وهو هو .

الرابع : أن يكون بدون حرف ، كقول قتادة بن مسلمة الحنفي :

فلئـــن بقيـــتُ لأرحلـــنّ بغزوة تحـوي الغنـائـم أو يمـوت كريمُ

أراد بالكريم نفسه ، فكأنه انتزع من نفسه كريماً مبالغة في كرمه ، ولذا لم يقل : أو أموت .

وللتجريد فائدتان :

الأولى : طلب التوسع في الكلام ، فإذا كان الكلام ظاهره خطاباً لغيرك ، وباطنه خطاباً لنفسك ، فإن ذلك من باب التوسع .

الثانية : أن يتمكن المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ؛ إذ يكون مخاطباً بها غيره ؛ ليكون أعذر ، وأبرأ من العهدة فيما يقوله ، غير محجور عليه[1] .

وهو من محاسن علوم البديع ولطائفه ، وقد استعمل على ألسنة الفصحاء كثيراً .

المبالغة :

ابن قتيبة يتناول المبالغة من خلال الاستعارة عندما يقول : « فنراهم يقولون حين يريدون المبالغة في وصف المصيبة عند موت أحد : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكت الريح والأرض والسماء »[2] .

وقدامة بن جعفر[3] يرى النقاد منقسمين حول الغلو في المعنى ، واتصافه بالحسن أو القبح ، ولم تكن ثمة حدود تعرف بها درجة الحسن أو القبح في المعاني المبالغ فيها حتى تدخل مجال الاستحالة ، فنراه يقطع برأي في هذه القضية ، وهو أن الغلو أفضل من التوسط ، وهو الذي ذهب إليه أهل البصر بنقد الشعر وأخذ به فلاسفة اليونان ، ويحتاط قدامة لما يستشعره القارىء أو السامع ، لما في الغلو من خروج عن الواقع إلى المستحيل ، فيبرر هذا الخروج إلى حد الاستحالة أو العدم بأنه صار بمنزلة المثل الذي يضرب للشيء إذا أريد وصفه بنهاية العظم أو غاية الحقارة . وهذا عنده أحسن من مذهب التوسط والاعتدال . إلا أن هذا الرأي يحسن المبالغة التي تخرج عن حدود الواقع إلى المستحيل أثار عاصفة من الجدل بين أوساط المتأخرين ، فرفضه قوم وأخذ به آخرون :

---

(١) المثل السائر - ابن الأثير ١٦٣/٢ ط نهضة مصر .

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٣٧ .

(٣) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي .

أخذ به الرماني[1] ومثل له بقوله تعالى : (لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاط) الاعراف ٤٠ كما أخذ به آخرون ذكرهم ابن رشيق[2] .

ورفضه قوم على رأسهم حازم القرطاجني ، فنراه يقف على النقيض من رأي قدامة ومن أخذ به كالرماني مدعيا « أن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، وقد خالف في هذا جماعة من لا تحقيق عنده في هذه الصناعة ، ولا بصيرة له بها ، فاستحسنوا من المبالغة ما خرج عن حد الحقيقة إلى حيز الاستحالة ، واحتجوا بمطالبة النابغة حسان بن ثابت بالمبالغة في أوصافه حين أنشده قوله :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بالضُحَى وأسيافُنا يقْطُرْنَ من نجدةٍ دَماً

فقال له : قلت أجفانك وسيوفك ، ولو قلت الجفان والسيوف ، لكان أبلغ ، والبصراء بصناعة البلاغة ، العارفون بما يجب فيها يقولون :

إنما طالب النابغة حسانا بمبالغة حقيقية وهي تكثير الجفان والسيوف ، فاستدرك عليه التقصير عما يسكن فيما وصف ، ولم يطالبه بتجاوز غاية الممكن والخروج إلى ما يستحيل[3] .

ولا شك أن ما زعمه القرطاجني بأن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، فيه مغالطة . فابن طباطبا[4] وقدامة والرماني قد أشادوا بالمبالغة ، وخاصة هذا النوع الذي يخرج إلى حد الاستحالة أو المعدوم ، وكتبهم وآراؤهم تشهد بعلو كعبهم في فهم أشعار العرب ، وتذوق أسرار القرآن الكريم .

كما أن الآمدي وهو إمام النقاد قد ارتضى هذا النوع من المبالغة واستحسنه في الخروج إلى المحال فيقول : « وقد يبالغ الشاعر في أشياء حتى يخرج منها إلى المحال ، ويخرج بعضها مخرج النوادر ، فيستحسن ولا يستقبح نحو قول الشاعر :

---

(١) النكت ٩٧ .

(٢) العمدة ٥٣/٢ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ١٣٤/١٣٣ ط تونس .

(٤) عيار الشعر ٤٥ – ٦٧ ط التجارية .

مـــن رأى مثـــل حِبّتــــي تشبــه البـــدر إذا بـــدا
تـــدخـــل اليـــوم ثـــم تـــد خـــل أردافهـــا غـــدا

ومثل هذا كثير ، وقد بالغ النابغة في وصف عنق المرأة بالطول فقال :

إذا ارتعشتّ خـاف الجبـانُ ارتعاثهَـا ومن يتعلـقْ حيثُ عُلِـقَ يفْـرَق

فيجعل القرط يخاف أن يسقط من هناك فيهلك ، وإنما أخرج هذا كالمثل : أي : لو كان مما يقع فيه الخوف لخاف[1] .

والمرزباني[2] يرى أن المبالغة عند أهل العلم بالشعر أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط ، وكذلك الشريف المرتضى[3] يرى أنها حسنة ، وسبب الحسن ما فيها من صنعة وتأنق . فالمبالغة فضيلة لا تنكر ، ولو كانت معيبة لما أتت في القرآن الكريم على وجوه شتى ، ولبطلت الاستعارة والتشبيه وكثير من محاسن الكلام ، وكلها مبنية على المبالغة .

وهذا النوع من الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

مبالغة ، إغراق ، غلو .
فالمبالغة : هي إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة .
والإغراق : وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة .
والغلو : وصف الشيء بما يستحيل وقوعه .

فمن أمثلة المبالغة قوله تعالى :

(يومَ تَروْنَها تَـذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها) الحج ٢ فالذهول والوضع المذكوران ، مبالغة في وصف يوم القيامة بالشدة ، وهما ممكنان في العقل والعادة ، فاستحسنت المبالغة .

---

(١) الموازنة ١/١٤٩ .
(٢) الموشح ٢٣١ ط نهضة مصر .
(٣) آمالي المرتضى ١/٩٦ ط الحلبي .

ومن المبالغة قول الرسول عليه السلام :

(والذي نفسُ محمد بيده لخَلَوفُ فمِ الصائمِ عند الله أطيب من ريح المِسْك) فأضافة الصيام إلى الله سبحانه دون سائر الأعمال لقصد المبالغة في تعظيمه وشرفه ، ومبالغة في تعظيم الثواب له .

وفيه مبالغة أخرى وهي : أن رائحة فم الصائم المتغيرة بسبب الأمساك عن الطعام والشراب أطيب من ريح المسك الذي هو أعطر الطيب .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر :

أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تُغَيَّبَ في التراب عظامي

فنسيان المحبوبة وترك ذكرها حتى الممات أمر ممكن قريب الوقوع في السعادة .

أما الأغراق : وهو الممكن الوقوع في العقل وإن كان بعيد الوقوع في العادة ، فكقول حسان في وصف الحرب :

تشيبُ الناهدُ العذراءُ فيها ... ويَسْقطُ من مخافتها الجنين

فشيب العذراء في الحرب ممكن عقلا دون عادة ، أو هو بعيد الوقوع عادة ، أما سقوط الجنين من شدة الخوف فهو مبالغة ؛ لأنه ممكن الوقوع عقلا وعادة .

ومن الأغراق قول حسان أيضاً :

لو يُدبُّ الحَوليّ مِن ولد الذّرِّ عليها لاندبتْها الكُلومُ

أي إذا مشى على جلدها النمل الصغير لأثر في جلدها وأصابها بالجروح لشدة رقته . وهذا أمر ممكن عقلا لاعادة .

ومنه قول أبي الطيب :

كأني هلالُ الشكّ لولا تأوُّهي ... خفيت فلم تهد العيون لرؤيتي

وقوله أيضاً :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل   لولا مخاطبتي اياك لم ترني

ومثل ذلك قول بشار :

في حُلَّتِي جسْم فتى ناحل   لوْ هبتْ الريحُ به طَاحَا

وقول أبي تمام يمدح المعتصم :

تعّودَ بسْط الكفّ حتى لو انّه   ثناها لقبْض لم تطعْه أناملُهْ

ولو لم يكن في كفّه غيرُ نفسه   لجاد بها فلْيتقّ الله سائلُهْ

فهذه الأبيات وما شابها معانيها ممكنة في العقل إلا أنها بعيدة الوقوع في العادة .

* * *

أما الغلو : وهو وصف الشيء بما يستحيل وقوعه عقلا وعادة .
فإن أفضى إلى الكفر كان قبيحا مردودا ، وإلا كان مقبولا ، والمقبول يتفاوت في الحسن ، وأحسنه ما دخل عليه ما يقربه إلى الصحة مثل كاد ، ولو ، ولولا وأداة التشبيه .

كقوله تعالى : (يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ ولوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَار) النور ٣٥ فإن إضاءة الزيت دون مس النار له مستحيلة عقلا وعادة ، ولكن دخول يكاد التي تفيد المقاربة أخرجته عن الامتناع ؛ لأنها دلت على مقاربة الأضاءة دون الأضاءة نفسها التي هي مستحيلة .

وقوله تعالى : (يكادُ سَنَا برْقِه يذْهبُ بالأبْصَار) ٤٣ النور
فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى الأمكان .

ومثل ذلك قوله تعالى : (وإنْ يَكادُ الذين كفروُا ليُزْلقُونكَ بأبصْارِ هِمْ لمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويقولون إنّهُ لمجْنُون) القلم ٥١ .

أي يهلكونك بأبصارهم من شدة النظر إليك بالعداوة والبغضاء . ومن الغلو المستحسن قول ابن المعتز :

يــكاد يجْــري مــن القميصِ من الـ نعمـة لـولا القميص يمسكــه

فالغلو هنا مقبول لدخول كاد ولولا ؛ لأن المعنى مبني على المقاربة لا الحقيقة .

ومثال الغلو الذي دخل عليه لو قول البحتري :

لـو أن مشتأقــا تـكـلّـف فوق مـا في وُسْعه لسَعـى إليــك المنبــرُ

وقول أبي الطيب[1] :

عقـدتْ سنابـكُها عليهـا عِثْيَــراً لـو تبتغي عَنقاً عليـه لأمْكنـا

فالذي قربه إلى الصحة دخول لو عليه ، وصدر هذا البيت لاغلو فيه إطلاقا .

ومثال الغلو المقترن بأداة التشبيه قول ابن نباتة :

كم ليلة بـتّ أشكـو مـن تطاولهـا عليّ والليلُ داجي القلب كـافـرهُ
وأرقب الشهبَ فيهـا وهـي ثـابتـة كأنمـا سُمّرتْ منهـا مَسَامِــرهُ

وقد ورد في القرآن الكريم هذا النوع من المبالغة المرتبطة بأداة التشبيه كقوله تعالى : (إنَّها تَـرْمِي بَشَرَرٍ كالقَصْر ، كأنَّـهُ جِمَالَةٌ صُفْر) المرسلات ٣٢ ، ٣٣ ومن هذا القبيل قوله تعالى :

(سَواءٌ منكمْ مَنْ أسَرَّ القَوْلَ ومَنْ جهَر به ومَنْ هُوَ مُسْتَـخْفٍ باللَيْلِ وسَارِ بٌ بالنَّهَار) الرعد ١٠ .

فجعل من يسر القول كمن يجهر به ، والمستخفي بالليل كالسارب بالنهار أي ظاهر يبصره كل أحد . وهذه المبالغة بالنسبة إلينا لا إلى الله عز وجل .

يقول ابن رشيق : وكل واحد منهما أشد مبالغة في معناه وأتم صنعة ، وهذا من معجز المبالغة[2] .

---

(١) إن سنابك الخيل آثارت كثيراً من الغبار ، ولـو أرادت الخيل أن تسير عليه لأمكنها ذلك لكثرته وصلابته .

(٢) العمدة ٧٦/٢ .

وقد يأتي الغلو بدون أداة تقريب ويكون مستحسناً كقوله تعالى : (وَبَلَغْتَ القلوبُ الحناجرَ) الأحزاب ١٠ .

فالقلوب لا تبلغ الحناجر وأصحابها أحياء .

وقوله تعالى : (وإنْ كانَ مكرُهُمْ لتَزولَ منْه الجبالْ) ابراهيم ٤٦ .
وقوله تعالى : (وَلاَ يَدْخُلونَ الجَنّةَ حتّى يَلِجَ الجَمَلْ في سَمّ الخِيَاط) الاعراف ٤٠
وكل ما ورد في القرآن من الغلو مقبول مستحسن .

أما الغلو المردود القبيح الذي يجب اجتنابه ، فهو ما آل بصاحبه إلى الكفر والاستخفاف بقدرة الله تعالى ، أو المدح الذي لا يليق إلا بجنابه عز وجل ، سواء اقترن بأداة تقريب أو لم يقترن .

كقول أبي نواس في مدح الرشيد :

فلا يتعذَّرَنَّ عليك عفوٌ ... وسِعْتَ به جميعَ العالمينا
وهذا إنما هو عفو الله سبحانه لا عفو الرشيد .

وقوله في مدح الفضل بن العباس :
يراه في الأرض والسماء فما ... تَجوزُ قُطْرَيْه كفُّ مخلوق

وكقول المتنبي :

لو كان علمك بالإله مقسّما ... في الناس ، ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ، ما انزل الـ ... قرآنَ والتوراةَ والإنجيلا

وقوله :
يترشّفْنَ من فمي رشفات ... هُنَّ فيه أحْلى من التوحيد
ومن الغلو الشنيع قول ابن هانىء الأندلسي في المعز لدين الله :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحدُ القهّارْ
وكأنما أنت النبي محمدٌ ... وكأنما أنصارك الأنصارْ
أنت الذي كانت تبشّرنا به ... في كتبها الأحْبار والأخبارْ

والشعراء المشهورون بالاستكثار من الغلو المردود والقبيح :
أبـو نواس والمتنبـي وابن هانـيء الأندلسي وهو أشهرهم بذلك ، وأبـو العلاء المعري .

* * *

المذهب الكلامي[1] :

وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام . والقرآن مشحون بهذا النوع .

يقول السيوطي : « فإن قلت : إن هذا النوع ليس من البديع ؛ لأنه يخلو من تحسين معنى الكلام المقصود ، بل المعنى المقصود هو منطوق اللفظ ، فالأتيان بهذا الدليل هو المقصود ، فهو تطبيق على مقتضى الحال ، فيكون من المعاني لا من البديع .

قلت : إخراج الكلام في المحاورة على غير توقع ، وإبرازه في صورة المقاصد العلمية فيه زائد على أصل تأدية المراد ، فلا بد أن يكون موجباً للتحسين من هذه الجهة » .

ومن أمثلته قوله تعالى :

(قُلْ إنْ كانَ للرحْمَن ولَـدٌ فأنَا أوَّلُ العابـدِين) الزخرف ٨١ .
أي : إن صح بالبرهان القاطع ذلك ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، ويسبقكم إلى طاعته ، كما يعظم الرجل ولد الملك ، واللازم منتف بالمشاهدة فكذا الملزوم .

وقوله تعالى :

(إنّـكمْ ومَا تعْبدُونَ من دون الله حَصَبُ جَهنّم أنتمْ لها وارِدُون ، لـوْ كَانَ هؤلاءِ

---

(١) انظر في هذا الموضوع بديع القرآن ٣٧ ، الاتقان ١/١٣٥ ، عقود الجمان ٢/١١٨ نهاية الأرب ٧/١١٤ ، حسن التوسل ٢٢١ ، الصناعتين ٤١٠ ، أنوار الربيع ٤/٣٥٦ .

آلهةً ما وَرِدُوهَا وكلٌّ فيهَا خَالِدُون) الأنبياء ٩٨ ، ٩٩ .

إن هذه الأصنام والطواغيت التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ، ولو كانوا آلهة ما كانوا وقوداً لجهنم ، فيلزم من ذلك أن هؤلاء ليسوا بآلهة .

وقوله تعالى :

(ولاَ يَدْخُلونَ الجنة حتىّ يَلِـجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط) الاعراف ٤٠ .
أي لا يدخل الكفار الجنة أبداً ، حتى يلج الجمل في خرم الأبرة ، والجمل لا يدخل في خرم الأبرة أبداً ، فهم لا يدخلون الجنة أبداً .

ومن ذلك ما جاء رداً على منكري البعث حين قالوا :

(وأَقْسَمُوا بالله أَيْمانِهمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوت) النحل ٣٨ .
وقال تعالى : (كَما بَدأَكُمْ تَعُودُون) الاعراف ٢٩ .
وقال تعالى : (كَما بدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُه) الأنبيات ١٠٤ .
وقال تعالى : (أَفَعيينَا بالخَلْقِ الأوَّل) ق ١٥ .

ومن بديع ما ورد من هذا النوع قوله تعالى :

(وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وجنّاتٌ من أعْنَابٍ وزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوآنٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ونُفَضّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ انّ في ذلك لأياتٍ لقومٍ يَعْقِلونّ) الرَّعد ٤ .

كانوا يرون أن الأرض إذا تباعدت أطرافها اختلفت التربة فكان منها الطيب والخبيث ، ويستبعد ذلك في المتقارب منها .

فبين الله لهم أن في الأرض قطعا متجاورات يقرب بعضها من بعض وتسقى بماء واحد ، وتختلف في مذاقها وطعمها . على العكس من ادعائهم بأن اختلاف الأكل راجع إلى اختلاف التربة أو اختلاف الماء .

ومن ذلك قول مالك بن المرحل الأندلسي :

لـو يـكـون الحـبُّ وصـلاً كلّـه   لـم تـكـن غـايتـه الا المـلـلْ

أو يكـــون الحـــب هجـــرا كلـــه ... لــم تــكــن غـــايتـــه إلا الأجــلْ
إنمـــا الـــوصـــل كمثـــل المـــاء لا ... يستطـــاب المـــاء إلا بالغـــلل

قاس الشاعر الوصل على الماء ، فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش ، فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد الهجر .

ومن شواهد هذا الباب قول الفرزدق :

لـكـل امرىء نَفْسان : نفسٌ كـريمـةٌ ... ونفسٌ يُعَاصيها الفتـى ويطيعُهـا
ونفسُك من نفسَيْـك تشفَـع للنّـدى ... إذا قـلّ من أحرارهنْ شفيعُهـــا

يقول : لكل إنسان نفسان : نفس مطمئنة تأمره بالخير ، ونفس أمارة تأمـره بالشر . والأنسان يعاصي الأمارة مرة ويطيعها أخرى ، فإذا أمرتك النفس الأمارة بترك الندى جاهدتها النفس المطمئنة وشفعت إليها في الندى ، في الحالة التي يقل فيها ذلك من النفوس فأنت أكرم الناس .

* * *

حسن التعليل[1] :

وهو أن يدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي بحيث لا يكون علة له في الواقع ، وإلا لما عد من محسنات الكلام ؛ لعدم التصرف فيه :

فمن ذلك ما قاله الشاعر في وصف غلام تحت حنكه خال :

حبـــذا الخـــال كـامنـاً منـه بين الـ ... خـــدّ والجيـــد رقبـــة وحـــذاراً
رام تقبيلـــه اختـــلاسا ولـكـــن ... خـــاف مـــن سيـــف لحِظِه فتوارَى

فظهور الخال تحت الحنك ليست له علة في العادة ، ولكن الشاعر علله

(١) انظر في هذا الموضوع : تحرير التحبير ٣١٠ ، أنوار الربيع ١٣٦/٦ ، سر الفصاحة ٣٢٧ ، عقود الجمان ١٢١/٢ نهاية الأرب ١١٥/٧ ، خزانة الأدب ٤١٦ ، الطراز ١٣٨/٣ .

بعلة مناسبة طريفة فقال : إن الخال ود تقبيل الغلام خلسة ولكنه خشى من سيف لحظه فتوارى تحت الحنك .

ومن ذلك قول جمال الدين الحلى :

ولما نضا وجه الربيع نقابه وفاحت بأطراف الرياض النسائمْ
فطارت عقول الطير لما رأينه وقد بهتت من بينهن الحمائم
خشين جنوناً بالرياض وحسنها فرُحْن وفي أعناقهن التمائم

وقد يأتي الشاعر بعلة غير المعروفة على سبيل الاستحسان ، كقول ابن رشيق القيرواني في تعليل قول الرسول عليه السلام :

(وجُعِلت لِيَ الأرضُ مَسْجداً وطهورا) .

سألت الأرضَ لِمْ جُعلتْ مُصَلّىً ولِمْ كانت لنا طُهْراً وطيبا
فقالت غيرَ ناطقة ؛ لأنّي حويت لكلّ انسانٍ حبيباً

فقد جعل لكون الأرض مسجداً وطهورا علة مناسبة لطيفة : وهي انها حوت في باطنها حبياً لكل إنسان .

وقد يريد الشاعر أن يثبت وصفاً غير ثابت ، إلا ان إثباته أمر ممكن كقوله :

ولقد هَمَمْتُ بقتلها من حبها كيما تكون خصيمتي في المحْشَر
حتى يطول على الصراط وقوفنا فيلذ عيني من لذيذ المنظر

فقد ادعى الشاعر أمراً غير ثابت ولا معتاد ، وهو همّ العاشق بقتل محبوبته ، وعلله بطول الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط فتلتذ عينه بالنظر اليها .

وقد يكون اثباته غير ممكن كمعنى بيت فارس ذكره الخطيب القزويني [1] :

لو لم تكنْ نِيّةُ الجَوْزَاءِ خِدْمَتَهُ لمَا رأيتَ عليها عِقْد مُنْتَطِق

(١) الايضاح ٥٢٢ .

فالشاعر أراد أن يثبت وصفا غير ممكن ، وهو : نية الجوزاء خدمة الممدوح ، وجعل الانتطاق علة له .

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذم[1] :

وهو ضربان :
أحدهما : أن يستثني من صفة ذم منفية صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقوله تعالى :

(لاَ يَسْمعُونَ فيهاَ لَغْواً ولا تَأْثِيماً الاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَمًا) الواقعة ٢٥ ، ٢٦ أي لا يسمعون في الجنة ما لا يعتد به من الكلام أو كلاما قبيحا ، أو فيه إثم . فهذه صفة ذم منفية ، فإذا جاء الاستثناء أو هم أن ما يأتي بعده صفة ذم حتى يخرج من الكلام السابق ، فإذا جاءت صفة مدح تأكد المدح السابق ؛ لأنه بعد مدح . فكان كالدعوى التي يصحبها الدليل .

ومن هذا الضرب قوله تعالى :

(قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاّ أنْ آمنَّا باللهِ وما أُنزِلَ الينْآ وما أُنْزِلَ مِن قَبْلُ) المائدة ٥٩ .

فالاستفهام هنا انكاري في قوة النفي أي لا تنقمون منا ، وهذه صفة ذم منفية ، فإذا جاء بعد ذلك الاستثناء أو هم أن ما بعده صفة ذم ، ولكنه أتى بصفة مدح : وهي الايمان بالله وما أنزل اليهم ، فكان مدحاً بعد مدح ، وهذا تأكيد للمدح بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول أبي هفان :

---

(١) انظر في هذا الموضوع . تحرير التحبير ١٣٣ ، بديع القرآن ٤٩ ، الصناعتين ٤٠٨ ، حسن التوسل ٢٢٩ أنوار الربيع ٢٧/٦ ، الطراز ١٣٦/٣ ، خزانة الأدب – البغدادي ٣٣٤/٣ .

ولا عيبَ فينا غيرَ أنَّ سماحَنا   أضرَّ بنا والبأسَ من كلِّ جانبِ
فأفْنَى الردَى أعمارَنا غيرَ ظالم   وأفْنَى الندى أموالَنا غيرَ عائبِ
أبونا أبٌ لو كان للناس كلّهمْ   أباً واحداً أغناهمْ بالمناقِبِ

فنفى العيب أولاً ، ثم استثنى منه السماح ، والسماح صفة مدح لا ذم ، فكان مدحاً بعد مدح ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ويمكنك أن تقيس على ذلك قول الشاعر :

ولا عيبَ فيه غيرَ أنّ ذوي الندى   خِساسٌ إذا قيسوا به ولئامْ

وقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غيرَ أنّ ضيوفَهم   تُعَابُ بنسْيان الأحبّة والوطن

والثاني : أن تثبت للشيء صفة مدح وتعقّب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له ، كقول النابغة الجعدي :

فتىً كَمُلَتْ أخلاقُه غيرَ أنه   جوادٌ فما يُبقي من المال باقيا
فتىً تَمّ فيه ما يسرُّ صديقَه   على أنّ فيه ما يسُوء الأعادِيا

فقد أثبت له صفة مدح أعقبها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى ، فكان مدحاً على مدح ، فهو بمثابة تأكيد المدح من جهة ، وهو يشبه الذم من جهة أخرى ؛ لأن الاستثناء يوهم بذلك ، ويقدر الاستثناء منقطعاً فيكون المعنى فتى كملت أخلاقه لكنه جواد .

ومن ذلك قول ابن المغربي الوزير :

وَيعْدِلُ في شرْق البلادِ وغَربِها   على أنّه للسيف والمال ظالمْ

فمدحه بالعدل أولاً وهذه صفة مدح ، ثم مدحه ثانيا بأنه محارب وكريم ، فهو ظالم لسيفه وظالم لماله . فأكد المدح .

وينطبق هذا الضرب على قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(أنا أفصح العرب بيْد أنيّ مِن قريش) .

وفائدة هذا الأسلوب : إثبات المحاسن وسلب المساوىء ، فتتضاعف المحاسن ، وتتأكد في الممدوح لدى الناس ؛ لأن كل إنسان مهما اشتمل عليه من صفات الحسن ، لا يسلم من بعض المساوىء .

تأكيد الذم بما يشبه المدح :

وهو ضربان أيضاً :

أحدهما : أن يستثني من صفة مدح منفية صفة ذم بتقدير دخولها فيها :
كأن تقول : فلان لا خير فيه إلا أنه حسود ، وفلان لا علم له إلا أنه سيء الخلق ، وفلان لا قِيَم لديه إلا أنه يمشي بين الناس بالنميمة .

وثانيهما : أن يثبت للشيء صفة ذم يعقبها بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له :

كأن تقول : فلان سيء الخلقة إلا أنه سيء الخلق . وفلان جاهل إلا أنه فاسق . وفلان جبان إلا أنه بخيل .

ومما يجب التنبيه إليه أن الاستثناء لا يعدّ من المحسنات البديعية إلا إذا تضمن معنى زائداً على المعنى اللغوي للاستثناء الذي يختص به علم النحو ، كما رأينا في هذا هذا الباب .

التوجية[1] :

وهو أن يكون الكلام محتملاً لوجهين من غير تقييد بمدح أو غيره ، ويسميه بعضهم بالأبهام :

ومثاله من القرآن :

(مِن الذينَ هَادُوا يحرِّفُونَ الكَلِمَ عنْ مواضِعِهِ ويقولون سَمِعْنَا وعَصَيْنَا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ وَراعِنَا لَيّاً بألْسِنَتِهِمْ وَطْعناً في الدِّين) النساء ٤٦ فغير مسمع قول ذو وجهين :

---

(١) عقود الجمان ١٣٠/٢ ، الأنوار ٥/٢ .

يحتمل الذم : أي أسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت فكان أصم غير مسمع ، ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك وترضاه فكأنك لا تسمع شيئاً .

و يحتمل المدح : فيكون المعنى اسمع كلاماً غير مسمع مكروها .

وكذلك كلمة (راعنا) أي أرقبنا وانتظرنا نكلمك ، وتحتمل معنى الذم ؛ لأن هذه الكلمة شبه كلمة عبرانية يتسابون بها وهي راعينا ، فكانوا سخرية بالدين وهزءا بالرسول ، يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والأهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام .

ومن ذلك قول الرسول عليه السلام : (إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شئتَ) .

فانه يحتمل المدح والذم فمعنى المدح : إذا لم تفعل فعلا تستحي منه فاصنع ما شئت .

ومعنى الذم : إذا لم يكن لك حياء يمنعك فاصنع ما شئت .

وقوله أيضاً في شرح الحضرمي وهو أحد الصحابة :

(ذاك رجل لا يتوسّد القرآن) يحتمل وجهين :

أحدهما المدح : وهو انه ينام الليل حتى يتوسد القرآن معه .

والثاني الذم : وهو انه ينام ولا يتوسده معه أي لا يحفظه .

وقوله أيضاً : (من جُعل قاضياً فقد ذُبح بغير سكين) .

يحتمل المدح بأنه من شدة مايعانيه من الوفاء بحقوق المسلمين وقع في تعب عظيم كتعب من ذبح بغير سكين .

و يحتمل الذم بأنه وقع في ظلم الناس ، فهو هالك على وجه شديد الألم كمن ذبح بغير سكين .

ومن ذلك ما قاله أبو مسلم الخراساني يوماً لسليمان بن كثير : إنك كنت في مجلس وقد جرى ذكرى فقلتَ :

« اللهم سَوِّدْ وجهَه ، واقطعْ رأسهَ ، واسقني من دمِه » .

فقال : نعم قلت ذلك ونحن جلوس بكرم حصرم ، فاستحسن توجيهه وعفا عنه .

ومن أمثلة التوجيه الشعرية قول المتنبي في مدح كافور :

وغير كثيرٍ أن يزورك راجل فيرجعَ ملكاً للعراقين واليا

ظاهر البيت : أن من رآك أفاد منك المعالي .

وباطنه : أن من رآك على ما بك من النقص وقد أصبحت ملكا ، ضاق صدره أن يقصر عما بلغته وألا يتجاوز ذلك إلى كسب المكارم ، وكذلك إذا رآك الراجل لا يستكثر لنفسه أن يرجع والياً على العراقين .

وقوله فيه :

يدلّ بمعنىً واحدٍ كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

قال ابن جنى :

لما قرأت هذا البيت ضحكت وضحك أبو الطيب ، وعرف مطلوبي ومثل ذلك قوله :

يضيق على من رآه العذر أن يرى ضعيف المساعي أو قليل التكرّم

ظاهره : أن من يراه ولم يتعلم منه فهو غير معذور ولا يصح أن يكون قليل التكرم ضعيف المسعاة ، وهذا مدح .

وباطنه : أن مثله في خسته ولؤم طباعه إذا كانت له مسعاة وتكرم ، فلا عذر لأحد بعده في تركه ، وهذا ذم .

* * *

الهزل الذي يراد به الجد[1] :

هذا نوع من البديع لطيف المسلك رشيق المأخذ وهو عبارة عن أن يقصد المتكلم غرضاً من الأغراض سواء أكان مدحاً أم ذماً أم غيره من غزل أو شكوى

(١) الأنوار ٢/١٦٦ الإيضاح ٥٣٠ .

أو اعتذار فيخرج مقصوده مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب . كقول الشاعر وقد دعى إلى طعام ، فأخر صاحب الدعوة الطعام إلى المساء وجعل يجيء ويذهب في داره :

يـــا ذاهبـــاً في داره جـــائيـــا بغيـــر مـــا معنـــى ولا فـــائـــدة
قـــد جُـــنّ اضيـــافُـــك من جوعهـــم فـــاقـــرأ عليهـــم سورةَ المائـــدة

ومن طريفه قول أبي العتاهية :

أصابت علينا جودك المعين يا عُمَـرْ فنحن لها نبغي التمائـم والنُشَرْ
سنرقيـــك بـــالأشعار حتـــى تملّهـــا فـــإن لـــم تفـــق منها رقيناك بالسور

وقوله أيضاً :

أرقيـــك أرقيـــك باسم الله أرقيكـــا من بخـــل نفسك على الله يشفيكا

وواضح أن هذه الأبيات قد أخرجها الشاعر في صوره الهزل وأراد بها الجدّ الذي يحمل في طياته السخرية اللاذعة والهجاء المقذع ، ولكن الذي ضعف من وطأة هذا الهجاء ما أبداه الشاعر من الهزل في تصويره هذه المعاني .

ومن أمثله هذا النوع في غير الهجاء قول ابن الهبارية :

يقـــول أبـــو سعيـــد إذ رآنـــي عفيفـــا منـــذ عـــام ما شربت
عـــلى يـــد أي شيـــخ تبت ؟ قـــل لي فقلـــت : عـــلى يـــد الإفلاس تبت

فان هذا ظاهره المجون والخلاعة ، والمراد هنا الجد ؛ لأن المقصود هو شكوى الإفلاس .

وفي هذا المعنى قال البهاء زهير :

قـــالوا : فـــلان قـــد غـــدا تـــائبـــاً واليومَ قـــد صلى مـــع النـــاسِ
قلـــت : متـــى كـــان وأنّـــى لـــه وكيـــف ينسى لـــذة الكـــاس ؟
أمس بهـــذي العيـــن أبصرتُـــه سكـــرانَ بـــين الـــورد والآس
ورحـــت عـــن تـــوبتـــه سائـــلاً وجـــدتُها تـــوبـــةَ إفـــلاسِ

أما التهكم : فهو الخطاب بلفظ الأجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في مكان الوعيد ، والعذر في موضع اللوم ، والمدح في موضع السخرية .

فمن الخطاب بلفظ الأجلال في موضع التحقير قوله تعالى :

(ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العزيزُ الكريمُ) الدخان ٤٩

ومن البشارة في موضع التحذير قوله تعالى :

(بشِّرِ المنافقينَ بأنَّ لهمْ عذاباً أليماً) النساء ١٣٨ .

وقوله : (فَبشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم) آل عمران ٢١ .

ومن الوعد في موضع الوعيد ، قوله تعالى :

(وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كالمُهْل) الكهف ٢٩ .

فهذا ضد الأغاثه .

ومن العذر في موضع اللوم قول أبي الحديد :

عذرتكما إن الحمام لمبغض	وانّ حياة النفس للنفس محبوبُ

ومن التهكم قول ابن الرومي :

فيا له من عملٍ صالحٍ	يرفعه الله إلى أسفل

ولابن دنيال في رجل أحدب :

قسما بحسن قوامك الفتّان	يا أوْحد الأمراء في الحدبانِ
يا مُخجلا شكل الهلال بقدّه	حاشاك أن تُعزي إلى نُقصانِ
والعُود أحدبُ وهو ألهَى مطرب	ولقد سمعت بنغمة العيدانِ
وكذا سفين البحر لولا حُدْبه	في ظهره لم يَقْوَ للطوفانِ

وقد ذكر ابن أبي الأصبع أن التهكم من مخترعاته [1] والحق أن التهكم كان

معروفاً من قبل في كتب البلاغيين على أنه من الاستعارة التهكمية ، فالزمخشري يذكر التهكم في تفسيره لقوله تعالى : (له مُعَقِّباتٌ مِنْ بين يديْه ومِنْ خلْفه يَحْفَظُونَهُ أمرِ اللهِ) الرعد ١١ يقول : إن المعقبات هم الحرس من حول السلطان يحفظونه بزعمه من أمر الله على سبيل التهكم ، فانهم لا يحفظونه إذا جاء . ويمكن أن يقال إن ابن أبي الأصبع أول من أدخله في أنواع البديع .

والفرق بين التهكم والهزل الذي يراد به الجد :

أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل .

والهزل الذي يراد به الجد ظاهره هزل وباطنه جد على عكس التهكم .

والفرق بين التهكم والذم في معرض المدح : ان المقصود بالتهكم السخرية والاستهزاء .

أما الثاني فان ظاهره لا يدل إلا على المدح حتى يقترن به ما يفهم ان المقصود به الهجاء .

تجاهل العارف[1] :

هو أن تسأل عن شيء موهماً أنك لا تعرفه ، وأنه مما خالجك فيه الشك والريبة .

قال السكاكي : لا أحب تسمية هذا النوع بهذا الأسم لوروده في كلام الله ، وسماه : سوق المعلوم مساق غيره لنكتة ، ونكت التجاهل أكثر من أن تضبط كالمبالغة في المدح أو الذم أو التعظيم أو التحقير أو التوبيخ أو التقرير ، أو التعريض أو التعجب ، إلى غير ذلك .

---

(١) تحرير التحبير ٩٤ .

(٢) بديع القرآن ٨٠ ، تحرير التحبير ١٣٥ ، خزانة الأدب ١٢٢ ، عقود الجمان ١٣٥/٢ ، الطراز ٨٠/٣ أنوار الربيع ١١٩/٥ .

قال صاحب الطراز : هو مقصد من مقاصد الاستعارة نقل الى فنون البديع ويبلغ به الكلام الذروة العليا ، ويحله في الفصاحة المحل الأعلى .

فمثال ما خرج مخرج التعجب قوله تعالى :

(أَبَشَراً مناً واحِداً نَتّبِعُه) القمر ٢٤ .

ومنه قول نصر بن سيار :

أرى خلَل الرمادِ وَميضَ جَمْر ... ويُوشِكُ أنْ يكونَ له ضِرامُ
فانّ النارَ بالزنديْن تُورى ... وانّ الحربَ اوّلُها كَلامْ
أقولُ مِن التعجّب ليتَ شِعْري ... أأيْقاظٌ أمَيّةُ أمْ نِيَام

ومثال ما خرج مخرج التوبيخ قوله تعالى :

(أَصَلاتُكَ تأْمُرِكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أوْ أنْ نَفْعَلَ في أمْوالِنَا ما نَشَاء) هود ٨٧ ومثله قول حسان بن ثابت :

أتهجوه ولستَ له بكفْء ... فشرُّكما لخيرِكُمَا الفداءْ

ومثال ما خرج مخرج التقرير قوله تعالى :

(أأنتَ فعلْتَ هَذا بآلِهَتِنَا يا ابْرَاهِيم) الأنبياء ٦٢ .

(أأنت قلتَ للناسِ اتّخِذُوني وأُمّيَ الٰهيْنِ مِنْ دُونِ الله) المائدة ١١٦ .

ومنه قول جرير :

ألستُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطَايَا ... وأندَى العالَمين بُطُونَ راحِ

ومثال ما جاء للمبالغة في المدح قوله تعالى :

(ما هَذا بَشَراً إنْ هذا الاّ مَلَكٌ كَرِيم) يوسف ٣١ .

فقد كان حسْن يوسف عليه السلام رائعاً ، وله مع الروعة نور وطلاقة ، وعليه

سكينة تؤمّن ناظره من تلك الروعة ، وتثبت قلبه لما يسري إليه من سكينة ، فكان تشبيهه بالملك الكريم أصح وأوقع وأشد مطابقة من أكثر الجهات .

ومن ذلك قول الشاعر :

بــدا فــراع فــؤادي حسْنُ صــورتِــه
فقلت : هــل مَلِكٌ ذا الشخص أم مَلَكٌ ؟

وقول أبي فراس :

تسائلنــي مــن أنت ؟ وهــي عليمــة وهــل يفتي مثلي عــلى حاله نكُر ؟

وقول التهامي :

فقلت أَوجْـهٌ لاح مـن تحـت برقـع أم البـدْر بالغيـم الرقيـق تبرقعا ؟

وقد يكون التجاهل لنكتة التحقير كقوله تعالى حكاية عن الكفار :

(هلْ ندلُّكُمْ على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ اذَا مُزّ قْتُمْ كلَّ مُمزَّق إنَكُمْ لفِي خَلْقٍ جَدِيد) سبأ ٧ يعنون محمداً عليه السلام كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما ، وهو عندهم أظهر من الشمس .

وكقول الشاعر :

يقـولـون هــذا عنـدنـا ليس ثــابتــاً ومن أنتم حتى يـكون لـكم عندُ ؟

وقد يكون الغرض التعريض ، كما جاء في قوله تعالى :

(وإنّا أوْ إيّاكُم لَعلىَ هُـدًى أوْ في ضَلاَل مُبين) سبأ ٢٤ فهذا تعريض بأن الكافرين في ضلال والرسول على هدى ؛ لأنهم لو تفكروا في أحوال أنفسهم وما هم فيه من الأغارات بالحروب وأرتكاب الفواحش وقطع الأرحام ، وحال الرسول والمؤمنين وما هم عليه من إيثار للسلام ، واجتناب للآثام وصلة للأرحام ، عرفوا أنهم على ضلال ، والرسول وصحبه على هدى .

القول بالموجب[1] :

هذا نوع من البديع غريب المعنى ، لطيف المبنى ، راجح الوزن في معيار البلاغة ، مفرغ الحسن في قالب الصياغة .

وهو ضربان :
الأول : أن تثبت صفة لشيء فتنقل هذه الصفة إلى شيء آخر ، دون أن تتعرض للأول بالأثبات أو النفي ، كقوله تعالى :

(يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنها الأَذَلَّ ، ولله العِزَّةُ وَلِرَسُولِه ولِلْمُؤْمِنين) المنافقون ٨ .

فإنهم كنوا بالعزة عن فريقهم ، وبالأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الأخراج ، فأثبت الله العزة لذاته ولرسوله وللمؤمنين ، من غير تعرض للمنافقين بإثبات صفة العزة لهم أو نفيها عنهم .

الثاني : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله الكلام ومن ذلك قوله تعالى :

(ومِنْهُم الذينَ يُؤْذُونَ النَبيَّ ويقُولونَ هو أُذُنٌ ، قلْ أُذُنُ خَيْرٌ لكُمْ) التوبة ٦١
نعم ، هو أذن ، ولكن نعم الأذن ، أي هو أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير ، لا أذن سوء ، قصدوا بذلك المذمة ، ولكن فسره بما هو مدح له ، ولا شيء أبلغ في الرد من هذا الأسلوب ؛ لأن فيه إطماعا في الموافقة ، وكراً إلى إجابتهم في الإبطال .

والأذن هو الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل كل ما يقال ، كأن جملته أذن سامعة .

---

(١) بديع القرآن ٣١٤ ، تحرير التحبير ٥٩٩ ، حسن التوسل ٣٠٥ ، عقود الجمان ١٣٧/٢ ، خزانة الأدب ١١٦ أنوار الربيع ١٩٨/٢ .

ومن ذلك قول الصفدي :

ولقد أتيتُ لصاحبي وسألتُه   في قرْض دينارٍ لأمر كانا
فأجابني : والله داري ما حوت   عيْنا ، فقلت له : ولا إنسانا

أراد المخاطب بالعين : الدرهم والدينار ، فحمله الشاعر على الجارحة المعروفة مما يحتمله الكلام .

ومنه أيضاً قوله :

وصاحب لما أتاه الغَنى   تاهَ ونفسُ المرْءِ طمّاحهْ
وقال : هلْ أبصرتَ منه يداً   تشكرها ؟ ، قلتُ : ولا راحهْ

أراد باليد : النعمة ، فحملها الشاعر على اليد الجارحة على خلاف مراد السائل .

ومنه قول الشاعر :

ولما أتاني العاذلون عدمتُهم   وما فيهم الا للحشَى قارضُ
وقد بُهتوا لما رأَوْني شاحباً   وقالوا : به عَين ، فقلت : وعارضُ

ومن ذلك قول ابن دويدة المغربي في رجل أودع مالاً لقاض فادعى ضياعه :

إن قال قد ضاعتْ ، فيصدُق أنها   ضاعتْ ، ولكنْ منكَ يَعْني لو تَعِي
أو قال : قد وقعتْ ، فيصدقُ أنها   وقعت ، ولكن منه أحسن موقع

* * *

والقول بالموجب يشترك مع أسلوب الحكيم في أن كلا منهما من إخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر ، ولكنهما يفترقان باعتبار الغاية :
فإن القول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه .

وأسلوب الحكيم ، هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده ، تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره ؛ تنبيهاً على أنه الأولى بحالة ، أو الأهم له .

فالأول كقول القبعثري للحجاج لما قال له متوعداً بالقيد : لأحملنّك على الأدهم ، فقال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب .

فانه أبرز وعيده في معرض الوعد ، وأراه بألطف وجه بأن مثله خليق بأن يُصفِد لا أن يُصَفِّد ، أي يمنح العطاء لا يقيد بالأغلال .

وكذا قوله ثانياً : ويلك إنه حديد : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً . فقد حمل القبعثري كلام الحجاج على خلاف مراده ، حيث حمل القيد الحديدي على أنه فرس نشيط لا بليد .

وأما الثاني وهو الأجابة عن السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزله سؤال آخر كقوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ عن الأَهِلَّةِ . قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ) البقرة ١٨٩ .

فقد سألوا عن أحوال الأهلة وتغيرها من الدقة إلى الاستواء والامتلاء ، ثم عودتها مرة أخرى إلى ما كانت عليه من الضآلة والدقة . فأجابهم عن شيء آخر هو أنفع لهم وأجدى عليهم ، وهو أن يعلموا منها أوقات الطاعات .

وكقوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ ماذَا يُنْفِقُون ؟ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ واليتامَى والمسَاكِينِ وابنِ السبيل) البقرة ٢١٥ .

فقد سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأجابهم عن بيان المصارف والجهات التي يجدر الأنفاق فيها ، فهي الأهم بالسؤال ؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقعها ، وكل ما فيه خير هو صالح للأنفاق .

وأنت إذا تأملت مواقع هذا النوع ، ظهر لك كمال الفرق بينه وبين القول بالموجب أتم ظهور ، وجزمت بخطأ من جعلها واحداً كأبن حجّة حينما يقول : القول بالموجب ويقال له أسلوب الحكيم .

* * *

الاطراد[1] :

وهو من طرد الماء إذا جرى في سهولة بلا توقف .

والمراد به هنا : أن يذكر الشاعر أسم الممدوح واسم من أمكنه من آبائه على الترتيب ؛ ليزداد إبانة وتوضيحاً على نسق مستقيم من غير تكلف في النظم ولا تعسف في السبك ، حتى يكون ذكر الأسم في سهولته كاطراد الماء وسهولة جريه وسيلانه .

والاطراد غير الاستطراد .

فالاستطراد أن تذكر كلاماً ثم تدخل عليه كلاماً أجنبياً عنه ، ثم ترجع إلى الأول ، والاطراد قد ذكرنا المراد به .

ومن أمثلة الاطراد قول الأعشى :

أَقيسْ بن مسعود بن قيس بن خالدٍ ... وأنت امرؤٌ يرجو شبابَك وائلْ

وكقول الشاعر :

من يكنْ رامَ حاجةً بَعُدت عنـ ... ـه وأعيت عليه كلّ العياءِ

فلها أحمدُ المرجّى ابنُ يحيى بن ... معاذ بن مسلم بن رجاءِ

وكقولك في نسب الأمام زين العابدين هو :

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابن الكريم : يوسفُ بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم) .

(١) بديع القرآن ١٤١ ، التحرير ٣٥٢ ، الطراز ٩٣/٣ ، حسن التوسل ٢٨٤ خزانة الأدب ١٦٠ .

وقد ورد الاطراء في القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

(وأتبعْتُ ملّـةَ آبائـي ابراهيمَ واسحقَ ويعقوب) يوسف ٣٨ .

وفي هذه الآية لم يبتدىء بالأب الذي جاء من صلبه ثم بالأعلى فالأعلى كما هي القاعدة ؛ لأنه مجرد ذكر الآباء ، وإنما أراد أن يذكر الملة التي اتبعها ، وهي الملة الحنيفية التي ابتدأها ابراهيم عليه السلام ثم يذكر من أخذها عنه على الترتيب ، فاقتضت البلاغة ذكر اسحق بعد ابراهيم ، ويعقوب بعد اسحق .

ومثل ذلك ما حكاه سبحانه عن أولاد يعقوب عليهم السلام بقولهم : (قالوا نَعْبُدُ آلهكَ وآلهَ آبائِكَ ابراهيمَ واسماعيلَ واسحقَ) البقرة ١٣٢ وتخريجه كالآية السابقة .

أما ذكر الأمهات والجدات فليس محموداً عند البلغاء وأهل العلم بشعر المدح ؛ لما فيه من إنزال قدر الممدوح ، وإنما كان هذا مكروها ؛ لأن شرف الانسان إنما يكون بالرجال لا من جهة النساء .

وقد عيب على أبي نواس في مدحه لمحمد بن الأمين ذكره لأمه في مدحه حيث قال :

أصبحْتَ يا ابن زُبَيْدَةَ ابنـةِ جعفـر ... أمـلاً لعَقْـدِ حِبالـه استِحْكَـامُ

فإن هذا قبيح في مثل هذا المقام .

وكذلك قوله :

وليس كجـدّتَيْـهِ أمّ مـوسى ... إذا نُسِبَـتْ ولا كـالخَيْـزُرَانِ

وصفي الدين الحليّ له تعريف آخر للاطراد وهو :

ذكر اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة به ، واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته ، في بيت واحد بلا تعسف ، ولا انقطاع بألفاظ أجنبية كقول بعضهم :

مـؤيّـــد الـــديـــن أبـــو جعْفَـــر   محمد بـن العَلْقَمِـــي الـــوزيـــر

فهذا البيت جمع في الناظم بين اللقب والكنية واسم الممدوح واسم أبيه والصفة اللائقة به .

وما ذكر الحليّ ليس بالمشهور .

* * *

الفصل الثاني

المحسّنات اللّفظيّة

من المحسنات اللفظية : الجناس :

وهو تشابه الكلمتين في اللفظ ، واختلافهما في المعنى .

وفائدته : الميل إلى الأصغاء إليه فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها ؛ ولأن اللفظ إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوق إليه ، وهو من ألطف مجاري الكلام ، ومن محاسن مداخله ، بل هو من الكلام كالغرّة في وجه الفرس .

والجناس أنواع متعددة نذكر أهمها :

١ – الجناس المستوفي التام :

أن يأتي المتكلم بكلمتين متفقتين لفظاً ، مختلفتين معنى ، لا تفاوت في تركيبهما ولا اختلاف في حركاتهما . سواء كان من أسمين ، أو فعلين ، أو من إسم وفعل ، أو أسم وحرف .

فإن كانا من نوع واحد سمي مماثلاً .
وإن كانا من نوعين مختلفين سمي مستوفي .

وهذا النوع من أكمل أصناف التجنيس وأرفعها رتبه وأولها في الترتيب مثال ذلك من القرآن الكريم :

(ويومَ تَقُومُ الساعةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعةَ) الروم ٥٥ فالمراد

بالساعة الأولى : يوم القيامة ، وبالثانية : الساعة الزمنية .

وقوله تعالى : (يَكادُ سنَا بَرْقِه يَذْهَبُ بالأَبْصَار يقلّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ إنّ في ذلك لَعِبْرَةً لأُولي الأَبْصَار) النور ٤٣ ، ٤٤ .

فالأبصار في الآية الأولى معناها الأنظار ، وفي الثانية معناها العقول .

ومن ذلك قول المعري :

معانيك شتى والعبارة واحد ... فطرْفك مُغْتَال وزَندك مغتال

فمغتال الأولى بمعنى مهلك ، والثاني بمعنى ممتلىء .

وقول الشاعر :

مضى عصر الشباب كلمح برق ... وعصر الشيب بالأكدار شيبا
وما أعددتُ قبل الموتْ زادا ... ليوم يجعل الولدان شيبا

فكلمة شيبا في البيت الأول فعل بمعنى تكدر ، وفي البيت الثاني وصف بمعنى بياض الشعر .

وأمثال هذا النوع كثير كقول عبد الله بن طاهر :

وانىَ للثَّغر المَخوف لكالىء ... وللثَغْر يجري ظُلْمُه لَرشُوفُ

فالمراد بالثغر الأول الثغرة التي يمكن للعدو أن يفاجىء منها .
والمراد بالثغر الثاني فم الحبيب وريقه الذي يرشفه .

قال الحاتمي « وهو أفضل تجنيس وقع لمحدث »[2] .

وقول أبي نواس :
عباسٌ عباسٌ إذا احتدمَ الوغى ... والفضْلُ فضلٌ والربيعْ ربيعْ
فالأولى منها أسماء ، والثانية منها أوصاف .
ومنه قول الجاحظ يعاتب صديقاً له :

---

(١) حسن التوسل ١٨٣ ، أنوار الربيع ١/١٤٨ .
(٢) العمدة ١/٣٢٣ .

« يُعاتب على حرْف ، ويُعيد المودة على حرْف » .
أي يعاتب على أتفه الأشياء ، ويعيد مودته بقدر يسير .
وكقولهم : « زائر السلطان الجائر كزائر الليث الزائر » .
فزائر الأولى معناها واضح ، والأخيرة بمعنى الزئير .

ووجه الحسن في هذا النوع : حسن الأفادة مع أن الصورة صورة الأعادة .

٢ - الجناس المركب :

ومن الجناس التام نوع يسمى جناس التركيب .
وهو ما كان أحد لفظيه مركباً .

وهو على ثلاثة أنواع :

الجناس المتشابه : وهو ما اتفق ركناه لفظاً وخطّا .

كقول ابن معصوم :

قـف طالبـا فضـل الآلـه وسائـلا واجعـل فواضلـه إليـه وسائـلا

« وسائلا » التي في الشطرة الأولى من البيت مركبة من كلمتين ومعناها السؤال .
« وسائلا » التي في الشطرة الثانية من البيت كلمة واحدة ومعناها الوسيلة .
وهما متشابهتان لفظاً وخطّا .

ومنه قول شمسويه البصري :

نـاظـراه فيمـا جنـى نـاظـراه أوْ دعـاني أَمُـتْ بما اوْدَعـاني

« أودعاني » تكررت في البيت ، ولكنها في الأولى مركبة من حرف العطف والفعل ، بينما أو في أودعاني الثانية من بنية الكلمة .

ومثل ذلك قول الشاعر :

طـار قلبـي يـومَ ساروا فَـرِقَـا وسواءٌ فـاض دمعـي أوْ رقَـا
حـار في سقمـي مـن بعـدهـمُ كـل مَنْ في الحـيّ داوى أوْ رقَـى

بعدهم لا ظلّ وادي المنحنى وكذا بانُ الحِمى لا أوْرقَا

وقول الآخر :

رُبَّ سفيه جليس سوءٍ مفترس عرضنا بنَابه
يقدح فينا بكلِّ سوءٍ وكل ما قاله بنا بِه

الجناس المفروق : وهو ما تشابه ركناه لفظاً لا خطاً . وسمي مفروقاً ، لافتراق الركنين في الخط .

كقولهم : «كنت أطمع في تجريبك ، ومطايا الجهل تجري بك» وكقول القمّى :

مات الكرامُ وانقضوا ومضوا ومات في أثرهم تلك الكرامات
وخلفوني في قوم ذوي سفه لوابصروا طيفَ ضيْفٍ في الكَرى ماتوا

«الكرامات» في البيت الأول و«الكرى ماتوا» في البيت الثاني متشابهتان في اللفظ مختلفتان في الخط .

وقول الآخر :

لا خير في العلم إذا لم يكن حظٌّ من المال أو الجاه لي
والعلم أن لم أك ذا ثروة أنزلني منزلة الجاهلِ

الجناس المرفوّ : وهو ما كان أحد ركنيه مستقلاً ، والآخر مرفوا من كلمة أخرى . أي مركباً من كلمة وبعض كلمة ، حتى يعتدل ركنا التجنيس ، كقولهم : «يا مغرور أمسك ، وقس يومك بأمسك» .

وقول الهمداني : «إن لم يكن لنا حظ في دَرْك دُرّك ، فخلصنا من شرَكِ شرّكِ» .

وكقول الشاعر :

تفرق قلبي في هواه فعنده فريقٌ وعندي شعبةٌ وفريقُ

إذا ظمئــتُ نفسي أقــول لـه أسقـني وإن لم يكنْ ماءٌ لديكَ فَريـقُ

وقول الآخر :

بنيسابـــور ساداتٌ كــــرام ترى أحـلامَهــم أحـلامَ عــاد
إذا بــدأوا بعْــرفٍ تمّمُــوه وعـادوا بعَـده أحـلى معــاد

ومنه قول الشاعر :

ضفَــتْ نعمتــان عمّتـاك وخصّنـا حـديثُهما حتـى القيامـة يُنشَر
وُجودُك والـدنيـا اليـك فقيـــرةٌ وَجودُك والمعروفُ في الناس يُذكر

ووجه حسن الجناس التام سواء كان مركباً أو غير مركب ، هو : حسن الإفادة مع أن الصورة صورة الأعادة .

٣ - الجناس المحرف :

وهو ما اتفقت فيه الحروف بين الكلمتين ، إلا أن إحداهما تخالف الأخرى في الهيئة ، أي في الحركة فقط ، أو في الحركة والسكون . فالأول كقوله تعالى :

(ولقد أرْسَلْنَا فِيهمْ مُنْذِرِ ين ، فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الْمُنْـذَرِ ين) الصافات ٧٢ ، ٧٣ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اللهم كما حسّنت خَلْقي فحسّن خُلقي » .

وقول معاذ رضي الله عنه : (الدَّين يهدم الدِين) .
وقولهم : « لا تنال الغُرر الا بركوب الغَرر » .
وكقولهم : « الصديق الصدوق أول العَقد وواسطة العقد » .
وقول الاهوازي : « أعيا الناس من أطال الخُطبة وأساء الخِطبة » .

ومثاله من الشعر قول المعري :

لغيري زكـاة من جِمـال ، فإن تـكـن زكـاةَ جَمالٍ فاذكري ابـن سبيلِ

وقول الشاعر :

فقلت لـلائمي أقصر فـإني سأختار المَقـام عـلى المُقام

ومثال ما كان الاختلاف فيه في الحركة والسكون معاً قول الشاعر :

ظننتُ بـه الجميلَ فجُبت أرضاً اليه كهمّتي طـولاً وعَـرْضَـاً
فلما جئتُـه ألفيـتُ شخصـاً حمَـى عَـرضا لـه وأباح عِرْضاً

ومن هذا النوع قولهم : البدعة شَركُ الشِّرْك .

الجَهول إما مُفْرِط أو مُفَرِّط .

٤ – الجناس المصحف :

ويقال له تجنيس الخط أيضاً ؛ لتماثل الكلمتين في الحروف واختلافهما في النقط .

كقوله تعالى : (وهمُ يَحْسَبُونَ أنَّهمْ يُحْسِنُون صُنْعاً) الكهف ١٠٤ (والّذِي هُوَ يُطْعِمُني ويَسْقِين ، وإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين) الشعراء ٧٩ (قُـلْ إنيّ لـنْ يُجِيرَني مِن الله أحدٌ ولنْ أجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَدا) الجن ٢٢ وقوله صلى الله عليه وسلم :

(عليك بالأَبْكَار ، فإنهن أشدُّ حُبّاً وأقلُّ خِبّاً) أي خداعا .
وقوله لعلي كرم الله وجهه : (قصرّ من ثيابك فإنّه أتْقَى وأنْقَى وأبْقَى) وقول علي فيما كتب به إلى معاوية :

« غَرّك عِزّك ، فَصار قُصار ذَلِكَ ذُلّكَ ، فاخْشَى فاحشَ فِعْلِك ، فعلّك بهذا تهدَا » .

وقول بعض السلف :

« لو كنتُ تاجراً ما اخترتُ غير العِطر ، إن فاتني ربحُه ، لم يَفُتْني ريحـه » .
وقولهم : « أجهل الناسِ من كان للأخوان مذلاً ، وعلى السلطان مدلاً » .

وقول البستي : « إذا ما بقي ما قاتك ، فلا تأسف على ما فاتك » .
وقوله : « طوبى لمن عقله يغنيه عما لا يعنيه » .
وقول الباخرزي : « العذْلُ على البذْلِ فعْلُ النذْل » .

ومن ذلك : « فملت لمجاورته إلى محاورته ، ولا يزكو بالخيفِ من يرغب في الحَيْف » .
« ومَنْ أحسنْ الاختبار أحسن الاختيار» .

ومن الشعر قول أبي فراس :

مــن بحــر شعــرك أغتــرف وبفضــل علمــك أعتــرف

وقول البحتري في مدح المعتز بالله :

ولم يكن المغتّر بالله إذ شرى ليعجز والمعتّز بالله طالبه

وإنما لقب هذا النوع بالمصحف ؛ لأن من لا يفهم المعنى ، فإنه يصحف أحدهما إلى الآخر ؛ لأجل تشابههما في وضع الخط كما ترى .

٥ - الجناس الناقص :

وإن اختلف اللفظان في عدد الأحرف فقط سمي ناقصاً . وقد تكون الزيادة بحرف واحد سواء كانت في أول أو في الوسط أو في الآخر مثال ذلك قوله تعالى :

(والتفّتْ السّاقُ بالسّاقِ إلى ربِّك يومئذٍ المسَاق) القيامة ٢٩ ، ٣٠ بزيادة المميم في الأول ، ومن ذلك ما وقع في الحريريات :

يسخو بموجوده ، ويسمو عند جوده .

ومثال ذلك شعراً :

---

(١) الإتقان ٩١/١ .

لـــم يبـــق صـــافٍ ولا مُصـــافٍ ولا مَعيـــــن ولا مُعيــــــنْ

فلم يختلف صاف ومصاف إلا بزيادة الميم في أوله .

ومن ذلك ما أنشده عبد القاهر الجرجاني :

وكـــم سبقـــتْ إليّ عـــوارفٌ ثنـائـي مـن تلـكَ العوارف وارفُ
وكـــم غـــرَرٍ مـــن بِرِّه ولطائـفٍ لشكري عـلى تلـك اللطـائـف طائفُ

ومثال الزيادة في الوسط : جَدِّى جَهْدِي .

ومثال الزيادة في الآخر :

وقوله تعالى : (كُلِي مِنْ كلِّ الثَّمراتِ) النحل ٦٩ .

وقولهم : « فلان سالٍ من أحزانه ، سالمٌ من زمانه ، حامٍ لعرضه ، حاملٌ لغرضه » .

وكقولهم « فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور ، كافٍ كافلٌ بمصالح الجمهور »
ومن ذلك قول الشاعر :

أراني اليـــوم لـــلأحبـــاب شاكٍ وقُـدْماً كنـت للأحباب شاكـرْ
ومـالي منهـــم أصبحـتُ بـــــاكٍ أبـاكـرُ بالمدامـعِ كـلَّ باكـرْ
أذاقـوني عنـــادا طَعـــم صـابٍ وقالوا كـن على الهجـران صابـرْ
وهـا قلبـي إلى الأحبـــاب صـاغٍ يميل إلى رضاهـم وهـو صاغـرْ
أحـنّ إلى لقـاهـم كـــل عـــامٍ وأرجو وصلهـم في شِعب عامـرْ

ووجه الحسن في هذا النوع الذي تأتي فيه الزيادة في الآخر ، أنك تتوهم قبل أن يرد عليك الحرف الأخير أنك تكرر الكلمة الأولى لمجرد التوكيد ، فإذا أتيت على آخر الكلمة انصرف عنك هذا الوهم وحصلت لك الفائدة بعد اليأس منها .

وقد تكون الزيادة بأكثر من حرف واحد ، كقوله تعالى :

(وانْظُرْ إلى إِلَهِك) طه ٩٧

(ولَكِنّا كنّا مُرْسِلِين) القصص ٤٥
(مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحاً فلهمْ أجْرُهُمْ) البقرة ٦٢
(إنَّ ربَّهمْ بهِمْ يومئذ لخَبِيرٍ) العاديات ١١
(مُذَبْذَبِينَ بيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلىَ هؤُلاَءِ ولاَ إِلىَ هؤُلاَءِ) النساء ١٤٣ .

٦ – الجناس المضارع والجناس اللاحق[1] :

أن تختلف الكلمتان المتجانسان في حرف واحد .

فإن كان الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج سمي مضارعاً .

وإن كان الحرفان المختلفان غير متقاربين في المخرج سمي لاحقاً .

والمضارعة المشابهة ؛ لأن الكلمة تشبه أختها في الصورة مثال المضارع : قوله صلى الله عليه وسلم :

(الخَيْلُ معقودٌ بنواصيها الخَيْر : الأَجْرُ والمغنَم إلى يوم القيامة) فاللام والراء متقاربان في المخرج .

وفي الحريريات : « لهم في السَّيْر جرْى السيل ، وإلى الخيْر جرْى الخيْل » .

ومنه قول الحطيئة :

مطاعينُ في الهيْجَا مَطاعيمُ في الدّجى   بنَى لهم آباؤُهم وبنى الجد

وقول البحتري :

ظللْتُ أرجّم فيك الظُّنُون   أحاجِمهُ أنتَ أم حاجبهُ ؟

ومثال الجناس اللاحق قوله تعالى :

(ويْلٌ لكلِّ هُمَزةٍ لُمَزة) الهمزة ١

(١) الأتقان ٩١/١ ، الطراز ٣٦٧/٢ ، الأنوار ١٤٠/١ ، حسن التوسل ١٩٤ .

(وأنّه علىَ ذلكَ لشَهيد وأنّه لِحُبّ الخَيْرِ لشَدِيد) العاديات ٧ ، ٨
(ذَلكمْ بما كنتمْ تَفرُحونَ في الأرضِ بغَيْرِ الحقّ وبما كنتمْ تمْرَحُون) غافر ٧٥
(وإذَا جَاءهمْ أمْرٌ مِن الأمْنِ) النساء ٨٣
ومن ذلك قولهم : « المكارمُ بالمكاره ، والتواضع شرَك الشرف » .
وفي الحريريات : لا أُعطى زمامي لمَن يَخْفر ذِمامي ، ولا أغْرس الأيادِي في أرضِ الأعادِي .

وقول أبي فراس :

غنـــى النفس لمـــن يعقـــل خيـــر مـــن غنـــى المـــالِ
وفضـــل النـــاس فـــي الأنفس ليس الفضـــل في الحـــالِ

وقول ابن معصوم :

قـد طلـع البـدرُ في كـواكبـه كالمَلْـك يختـال في مـواكبـهِ

٧ - جناس القلب :

ويسمى جناس العكس أيضاً .
وهو ما تساوت حروف ركنيه عدداً ، واختلفت ترتيباً .
كقوله تعالى حكاية عن هارون :
(إنيّ خَشِيتُ أنْ تَقُولَ فرّقْتَ بيْنَ بني إسْرائيلَ) طه ٩٤ .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

(اللّهم استرْ عوراتِنا وآمن رَوْعاتِنا) ، (يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارقَـأ) .

وقول عبد الله بن رواحة في مدح الرسول :

تحملـه النـاقـةُ الأدْمـــاءُ معتجـراً بالبُـرْدِ كالبدْرِ جَلّى نُورهُ الظُلَما

وقول العباس بن الأحنف :

حُسَامـكَ فيـه للأحبـاب فتــــح ورمحـك منـه للأعـداء حتـفُ

وقول أبي تمام :

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في متونهنّ جَلاءُ الشَّك والـرِيَــبِ

وقول الآخر :

قلـــت لمـــا لاحَ لي منـــها شعــاعٌ وبــريـــق
أشقيـــــق أم عقيــــق أم حـــريـــق أم رحيـــق

وقول الشاعر :

لاح أنـــــوار النــــدى مـــن كفّـــه في كـــل حـــال

وقول البحتري :

شواجـر أرمـاح تُقَطّـع بينَهـم شواجَــر أرحـام مَلُومٍ قطوعُهـا

وليس بالضرورة في الجناس المقلوب أن تقلب جميع حروفه ؛ بل اكتفى علماء البديع بقلب حرف واحد أو حرفين من أحد الركنين .

وسواء كان القلب في جميع الحروف ، مثل : لاح وحال ، وفتح وحتف ، واقرأ وارقأ ، أو كان في بعض الحروف ، مثل : حريق ورحيق ، وأرماح وأرحام وصفائح وصحائف سمي مقلوباً ، وأن بعض علماء البديع يخصون القلب في جميع الحروف باسم العكس[1] .

وإذا ولى أحد المتجانسين الآخر سمي مكرراً :
كقوله تعالى : (وجئْتُكَ من سَبأٍ بِنَبأٍ يَقِين) النمل ٢٢
وما جاء في الخبر : « المؤمنون هيّنون ليْنون » .

---

(١) الأنوار ١/٢٠٥ .

وقول البستي :

أبا العباس لا تحسَبْ لشيني	بأني من حُلَى الأشعار عاري
فلي طبع كسلسال معين	زلال من ذري الأحجار جاري
إذا ما أكبَت الأدوار زنداً	فلي زندٌ على الأدْوار وارِ

* * *

ويلحق بالجناس شيئان :

أحدهما أن يكون اللفظان لهما أصل واحد في اللغة ، وهذا يسمى تجنيس الاشتقاق ، كقوله تعالى :

(فأَقِمْ وجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّم) الروم ٤٣ .

وقوله تعالى : (يَمْحَقُ اللهُ الربَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ) البقرة ٢٢٦

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ذو الوجهَيْن لا يكون وجيها عند الله » .

وكقول أبي تمام :

عمَمْتَ الخلقَ بالنعْماءِ حتّى	غدا الثَقلان منها مُثقلَين

وكقول الشاعر :

ان تَر الدنيا اغارتْ	ونجومَ السّعْد غارتْ
فصروفُ الدهر شتّى	كلّما جارَتْ أجَارتْ

والثاني ما يشبه الاشتقاق وليس منه ، ويسمى تجنيس المشابهة .

كقوله تعالى : (لِيُرِيَهُ كيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أخِيه) المائدة ٣١ فالأول من الرؤية والثاني من المواراة .

وقوله تعالى : (وإنْ يُرِ دْكَ بخَيرٍ فَلا رادَّ لِفَضْلِه) يوسف ١٠٧

فالأول من الإرادة والثاني من الرد .

وقول البحتري :

وإذا ما رياح جودِكَ هَبّت	صار قولُ العذّال فيها هَبَاءُ

ومن العلماء[1] من جعل للتجنيس أصلين فقط وهما :
جناس المزاوجة وجناس المناسبة ومنها لفظي ومنها معنوي .

والجناس اللفظي منه جناس المزاوجة اللفظي ، وجناس المناسبة اللفظي . فجناس المزاوجة اللفظي كقوله تعالى :
(وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها) الشورى ٤٠ .

فالسيئة الثانية ليست سيئة وإنما هي بمعنى العقوبة ، وسميت باسمها لقصد المزاوجة . ومثله قوله تعالى :
(فَمنْ اعْتدَى عليكُم فاعْتَدُوا عليهِ بمثْلِ ما اعتَدى عليكُم) البقرة ١٩٤ سمي جزاء الاعتداء اعتداء ؛ ليكون في نظم الكلام مزاوجة .

وجناس المناسبة اللفظي يدخل فيه كل ما ذكرناه من أنواع الجناس السابقة ، أما الجناس المعنوي فمثل قوله تعالى :

(قُلْ يا أيهّا الكافِرون) مع قوله تعالى : (ولا أنتمْ عَابِدُونَ ما أعْبُد) الكافرون ١ ، ٣ فإن التقدير : يا أيها المكذبون أنتم المكذبون .

وكقول الشاعر :

أراني الله جسمَك في خفاء وعينَك مثل بشّار بن بُرد

أي عمياء ؛ لأن بشاراً كان أعمى ، فهو جناس بين عينك وعمياء .

وبيت المعري :
نهارهم ابن يعْفَر في ضحاه وليلة جارهم بنت المحلقْ
وبنت المحلق أسمها ليلى ، أي : ليلة جارهم مظلمة ، يقال : ليلة ليلاء ليلى ، أي : طويلة شديدة الظلام .

فهو جناس معنوي بين « ليلة وليلى » وابن يعفر هو الأسْود .

(١) بديع القرآن ٢٧ ، التحرير ١٠٢ ، النكت ٣٩ .

ومما ينبغي التنبيه إليه أن أنواع الجناس لا تستحسن حتى يساعد اللفظ المعنى ، ولا تستلذ حتى تكون عذبة الاصدار والايراد ، سهلة سلسة المقاد ، يراعى فيها النظائر وتمكن القرائن ، وإلا فما قلق في أماكنه ، ونبا عن مواقعه فبمعزل عن الرضا عند علماء البديع .

فإن أردت أن تستوفي الحسن فيه فأرسل المعاني على سجيتها ، ودعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإذا تُركت وما تريد ، لم تكتس إلا ما يليق بها .

فأما إذا تعمدّت التجنيس بلفظين مخصوصين ، فهذا هو المستكره المعيب ، وقد يفضي بك طلب الأحسان من حيث لم تحسنه إلى أشنع القبح ، وينقلب إحسانك إساءة .

انظر إلى قول ابن الفارض وقد أتى بجناس لا يخفى على صاحب الذوق السليم ما فيه من الاستثقال والكراهة :

وما اخترت حتى اخترت حبّك مذهبا فواحيرتي أن لم يكن فيك خيرتي
وجدّ بسيف العزم سوف فإن تجد تجد نفساً فالنفس أن جدت جدّت

في البيت الأول ، اخترت : من الخيرة ، واخترت الثانية من الاختيار ، وفي البيت الثاني ، تجد الأولى من الجود ، والثانية من الوجدان .

وإليك بعض الأمثلة التي تدل على التكلف الممجوج ، والاستهجان الممقوت وهي في غنى عن كل تعليق . كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مِشلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

وقول مسلم بن الوليد :

سُلّتْ وسَلّتْ ثم سُلَّ سَليلُها فأتى سليلُ سليلِها مَسْلُولاَ

وقول أبي الطيب :

فقلقلت بالهّم الذي قَلْقَلَ الحَشَا قَلاقِلَ عيسٍ كلُّهنّ قلاقِلُ

حُكيَ عن ابن جنى أن الأصمعي[1] كان يدفع قول العامة إذا قالوا : هذا بجناس ، ويقول : ليس بعربي خالص ، وقال ابن رشيق ، هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة ومما لا يشك في تكلفه .

رد الأعجاز على الصدور :

أول ما ينبغي لك أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظاً تقتضي جواباً ، فالمرضى أن تأتي بتلك الألفاظ في الجواب ، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها ، كقول الله عز وجل (وجزاء سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها) الشورى ٤٠

وهذا يدلك على أن لرد الأعجاز على الصدور موقعاً جليلا من البلاغة وله في المنظوم خاصة محلاً خطيراً[2] .

ويأتي هذا النوع في النثر كما يأتي في الشعر :

أما في النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بالمتجانسين في أول الفقرة والآخر في آخرها .

والمراد بالمكررين : المتفقين في اللفظ والمعنى .

والمتجانسين : المتشابهين في اللفظ دون المعنى .

والملحقين : اللذين يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق .

فهذه أربعة أقسام : والأمثلة على الترتيب كما يلي :

الأول قوله تعالى : (وتخْشَى الناسَ واللهُ أحَقُّ انْ تَخْشَاه) الأحزاب ٢٧ .

الثاني : سائلُ اللئيم يرجع ودمعه سائل .

الثالث : (استغْفِروا ربّكمْ انّه كَانَ غفّاراً) نوح ١٠ .

الرابع : (قَا إِنّى لِعَملِكمْ مِن القَالِين) الشعراء ١٦٨ .

وهذه بعض الآيات القرآنية التي يمكنك أن تردها إلى أقسامها :

قال تعالى : (والملائكةُ يشْهَدون وكَفَى بالله شَهيداً) النساء ١٦٦

---

(١) خزانة الأدب ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الصناعتين ٣٨٥ .

قال تعالى : (وهَبْ لنَا مِنْ لَدُنْكَ رحْمةً إنّك أنتَ الوهّاب) آل عمران ٨ .

قال تعالى : (ولقدْ استُهْزِيءِ برُسُلٍ من قبلِكَ فحَاقَ بالذين سَخِرُوا منهمْ مَاكَانُوا بهِ يَسْتَهْزِئُون) الانعام ١٠ .

قال تعالى : (أنظُرْ كيفَ فضّلْنَا بعضَهم على بعْضٍ وللآخِرَةُ أكبرُ دَرجاتٍ وأكْبرُ تَفْضِيلاً) الأسراء ٢١ .

وفي النظم على أربعة أقسام وهي :

أن يقع أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول ، أو حشوه ، أو عجزه ، أو صدر المصراع الثاني ، فهذه أربعه أقسام ، وعلى كل تقدير فاللفظان إما مكرران ، أو متجانسان ، أو ملحقان يجمعهما الاشتقاق ، أو ما يشابه الاشتقاق ، فهذه أربعة أقسام وبذلك تصير الأقسام ستة عشر :

ونبدأ باللفظين المكررين :

قال ابن جابر الأندلسي :

جمال هذا الغزال سحر ... يا حبّذا ذاكَ الجمالُ

كماله لا يخاف نقصا ... دام له الحسْنُ والكمالُ

وقال عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

وقال أبو فراس :

هو الموت فاختر ما حلا لك ذكره ... فلم يمت الأنسان ما حيي الذكْر

وقال البحتري :

على الحّي سرنا عنهم وأقاموا ، سلام ، وهل يدنى البعيد سلامُ وأمثلة اللفظين المتجانسين :

---

(١) أنوار الربيع ٣/٩٤ .

كقول السريّ الرفاء :

يَسارٌ من سجَيتها المنايا ويُمنى من عطيّتها اليسارُ

وقول الثعالبي :

وإذا البلابلُ أفصحتْ بلُغَاتِها فأنِفِ البلابلَ باحتساءِ بلابلِ

فالأول جمع بلبل ، والثاني جمع بلبلة وهي الهمّ ، والثالث جمع بلبلة الأبريق
وقول ابن جابر الأندلسي :

زرت الديار عن الأحبّة سائلاً ورجعت ذا أسف ودمع سائلِ

وقول أبي الفضل الميكالي :

إن لي في الهوى لسانا كَتوماً وفؤاداً يُخفي حريقَ جَواه
غيْر أنيّ أخافُ دمْعي ِ عليه ستَراهُ يُبدي الذي ستَراه

وأمثلة اللفظين اللذين جمعهما الاشتقاق :

كقول البحتري :

يريني الشيء تأتي به وأكْبرُ قدرِك أن أستريا

وقول أبي فراس :

وما إنْ شبْتُ من كِبَرٍ ولكنْ لقيتُ من الأحبّة ما أشابا

وقول البحتري :

وإني لآبّاءٌ على كلّ لائم عليك وعصّاه لكل مَلام

وقول أبي فراس :

ولكنني في ذا الزمان وأهلِه غريبٌ ، وأفعالي لديه غرائب

وأمثلة اللفظين اللذين يجمعهما ما يشبه الاشتقاق :

كقول الحريري :

ولاحَ يلحى على جرى العنان إلى ملهى فسحقا له من لائح لاح

فالأول من يلوح ، والأخير أسم فاعل من لحاه .

وكقول الشاعر :

لعمري لقد كان الثُريّا مكانه تراه فأضحى الآن مثواه في الثَرى

فالثريا واوي من الثروة ، والثري يائي .

وكقول الحريري :

ومضطَلِعٌ بتَلخيص المعاني ومُطَّلِعٌ إلى تخليص عانِي

فالأول من عنى يعني ، والثاني من عنا يعنو .

وكقول التهامي :

طيف ألمَّ فزاد في آلامي ألماً ولم أعهده ذا إلْمَام

فالألف في ألمّ أصليه ، وفي الألمام زائدة .

وأفضل هذه الأنواع إذا كان اللفظان متجانسين ، وأحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول .

السجع :

هذا اللون من ألوان البديع كثير الدوران عظيم الاستعمال في ألسنة البلغاء ، وقد عوّل عليه علماء البلاغة ، فقد وجدوا كتاب الله وسنه نبيه وكلام علي رضي الله عنه مملوءاً به ، ولو كان مستكرها لما ورد في الكلام البالغ الفصاحة ، ولأجل كثرته في السنة الفصحاء لا يكاد بليغ يرتجل خطبة أو يحرر موعظة إلا كان أكثر كلامه مبنياً على السجع ، والرسول عليه السلام لم ينكر السجع على إطلاقه ، وإنما أنكر منه سجع الكهّان فحسب ؛ لأنهم يريدون به إبطال حق فتتشدق ألسنتهم

---

(١) الطراز ١٨/٣ .

به ؛ للتأثير به على السامع وما يؤدي إليه من فورة انفعالية .

والسجع هو اتفاق الفواصل في الحرف ، أو في الوزن ، أو فيهما معاً . فإن اتفقا في الحرف دون الوزن فهو المطّرف كقوله تعالى :

(مَالَكُمْ لا ترجُونَ للهِ وَقَاراً وقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَاراً) نوح ١٣ ، ١٤ « فوقارا وأطواراً » اتفقتا في الحرف الأخير دون الوزن .

وان اتفقتا في الوزن دون الحرف سمي المتوازن ، كقوله تعالى :

(ونَمارِقُ مَصْفُوفَة وزَرابيُّ مَبْثُوثَة) الغاشية ١٥ ، ١٦ « فمصفوفة ومبثوثة » اتفقتا في الوزن دون الحرف الأخير وهو ما قبل التاء .

وإن اتفقتا في الوزن والحرف معاً سمي المتوازى كقوله تعالى :

(فيهاسُرُرٌ مرفُوعَةٌ وأكوابٌ مَوْضُوعَة) الغاشية ١٣ .

فإن راعى الوزن في جميع الألفاظ أو أكثرها وقابل الكلمة بما يعادلها في الوزن سمي المرصع ، من قولهم : تاج مرصع إذا كان فيه حلية ، وذلك كقوله تعالى :

(وأتيناهما الكتاب المُسْتَبِين ، وهَدْينَاهُماَ الصِّرَاطَ المسْتَقِيم) الصافات ١١٧ ، ١١٨ .

هذا الاستواء في أوزان الفواصل يجعل للكلام رونقاً وطلاوة ؛ لما في ذلك من الاعتدال المطلوب طبعاً .

والسجع لا يحسن كل الحسن إلا إذا توافرت فيه أربعة شروط :

أن تكون الألفاظ حلوة المذاق يلذ سماعها على الآذان .
أن تكون الألفاظ تابعة لمعناها ، ولا يكون المعنى تابعاً لها حتى تسلم من التكلف .
أن تكون إحدى السجعتين غير متنافرة مع أختها .

أن تكون إحدى السجعتين غير متنافرة مع أختها .

أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير لمعنى الأخرى ، وإلا كانت تكرار لا فائدة فيه ، كقول الصابي :

« يسافر رأيه وهو لا يبرح ، ويسير وهو ثاو لا يترح » يسافر ويسير بمعنى واحد ، ويبرح ويترح بمعنى واحد .

والسجع قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً . والقصير هو أصعب أنواع السجع مسلكاً وأطيبها على السمع ، وأخفها على القلب ؛ لأن الألفاظ إذا كانت قليلة فهي أحسن وأرق ؛ لقرب فواصلها والتحام أطرافها . ومن ذلك قوله تعالى :

(يا أَيُّهَا المدَّثِّرْ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وربكَّ فكَبِّرْ ، وثيابكَ فَطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فاهْجُرْ ، ولاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ، وَلِرَبِكَ فاصْبِر) أول المدثر .

وقوله تعالى :

(والمُرْسَلاتِ عُرْفا ، فالعاصفاتِ عَصْفا ، والناشِرات نَشْرا ، فالفارِ قَات فَرْقَا) أول المرسلات .

ومن السجع الطويل قوله تعالى :

(ولئنْ أذَقناهُ نَعْماءَ بعدَ ضَراءٍ مسَّتْه ليقولَنّ ذهبَ السّيئاتُ عنّي إنّه لفَرِحٌ فَخُور) هود ٩ ، ١٠ وقوله تعالى :

(إذ يُريكَهُم اللهُ في منامِكَ قليلاً ولو أراكَهُمْ كثيراً لفَشِلْتُم ولَتنازعْتُم في الأمْرِ ولكنّ الله سَلّم إنّه عليمٌ بذات الصدُور ، وإذ يريكُموهُمْ إذْ التقيتُمْ في أعينكُم قليلاً ويقلّلكُمْ في أعينِهم لِيَقْضيَ اللهُ أمراً كانَ مفْعُولاً وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمورَ) الأنفال ٤٣ ، ٤٤ .

ومن السجع المتوسط قوله تعالى :

(سبّح اسم ربّك الأعْلَى إلى قوله : انه يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يَخْفَى) الأعلى ١ — ٧ .

وقد تكون أعداد ألفاظ الفقرة الأولى مساوية للثانية ، أو أقل من الثانية ، أو زائدة على الثانية ، فهذه أضرب ثلاثة :

وأحسن السجع ما كانت فيه الفقرتان متساويتان ، كقوله تعالى :
(فأماَ اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ، وأما السائلَ فلا تَنْهَرْ) الضحى ٩ ، ١٠

وقوله تعالى : (والعادِياتِ ضَبْحاً ، فالمُورياتِ قَدْحاً ، فالمُغيراتِ صُبْحاً ، فأثْرْنَ به نَقْعاً ، فوسَطْنَ به جَمْعاً) العاديات ١ – ٥ .

والضرب الثاني : وهو ما كانت فيه الثانيه أطول من الأولى بغاية قريبة ، فإن طالت فهو غير محمود .

ويرجع قبح طول الثانية على الأولى إذا كان فاحشاً – إلى شيء نحسه بآذاننا وندركه بأذواقنا ؛ فإن السامع ألف الانتهاء إلى غاية في السجعة الأولى ، فإذا زيد عليها اختلت مقاييسه عنده ، وثقلت عليه هذه الزيادة التي لم يتوقعها في السجعة الثانية ، فيفتر حماسه لها ، وتقل نشوته بها ؛ لأنه أكتفى من الثانية بمقدار الأولى ، وظن أنه ظفر بمقصوده من فهم المراد ، وفي الحقيقة لم يظفر به بعد . أما الطول غير الفاحش فلا بأس به ، وقد ورد في القرآن (وقالوا اتّخَذ الرحْمنُ ولَداً ، لقدْ جئْتمْ شَيئاً إدًّا ، تَكَادُ السمواتُ يتفطّرْن منه وتَنشَقُّ الأرضُ وتخِرُّ الجبالُ هَدًّا) فاطر ٨٨ – ٩٠ فواضح أن الثانية أطول من الأولى .

الضرب الثالث : وهو ما كانت الفقرة الثانية أقصر من الأولى ، عكس الضرب الثاني ، وهذا معيب عند أهل البديع .

والسر في ذلك أن الفقرة الأولى إذا طالت ثم جاءت الثانية أقصر منها كانت كالشيء المنقطع المبتور ، وكان السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، ويتبدد ما كان يتوقعه من المماثلة بينهما .

وهذا الضرب أبعدها ، والضرب الأول أعد لها ، والثاني أوسطها في العدل ، ولذلك لا يكاد يوجد الضرب الثالث في القرآن الكريم[1] كما زعموا .

وهذا غير صحيح فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :

---

(١) الطراز ٣/٢٧ .

و(ألم تَرَ كيفَ فعَل ربُّكَ بأصحابِ الفيل ، ألمْ يجعلْ كَيْدهُمْ في تَضلِيل) الفيل ١ ، ٢ .

وينبغي أن نقول عن كلمات القرآن المتوافقة إنها فواصل ؛ تأدباً ، وقد سماها الله تعالى بذلك حيث قال : (كتابٌ فَصِّلَتْ آياتُه) فصلت ٣
فليس لنا أن نتجاوز ذلك ، كما لا يجوز لنا استعمال الفاصلة في الشعر ؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى ، فلا نتعداه .

ولا يقال فيها أسجاع حيث لا يجوز وصفها بصفةلم يرد الأذن بها ، ولا يجوز بالإجماع تسميتها قوافي ؛ لأن الله سلب عن القرآن الكريم صفة الشعر والقافية بالشعر وجزء منه .

ومن العلماء من خص السجع بالنثر ، والصحيح عدم اختصاصه به ، بل يجري في النظم أيضاً .

ومن السجع على هذا القول ما يسمى بالتشطير :

وهو أن يقسم الشاعر البيت شطرين ، ثم يصرّع كل شطر من الشطرين ، لكنه يأتي بكل شطر مخالفاً لقافية الآخر حتى يتميز من أخيه[1] كقول مسلم بن الوليد :

مُوفٍ على مُهَج ، في يوم ذي رهَجٍ   كأنه أجَملٌ ، يسعى إلى أمَل

وكقول أبي تمام :

تدبيرُ معتصمٍ ، بالله منتقمٍ   لله مرتغِبٍ ، في الله مرتقِبٍ

وقول البوصيري :

كالزهرِ في ترف ، والبدرِ في شرف   والبحرِ في كرم ، والدهرِ في هممِ

وقول ابن جابر الأندلسي :

---

(١) تحرير التحبير ٣٠٨ .

كالغيثِ في كرم ، والليثِ في حرم والبدرِ في أفق ، والزهرِ في خلَق

ومنه ما يسمى بالتصريع :

وهو استواء آخر جزء في الصدر وآخر جزء في العجز في الوزن والأعراب والتقفية ، ولا يعتبر بعد ذلك أمر آخر ، وهو في الأشعار كثير ، لا سيما في أول القصائد ، وكثير ما يأتي في أثناء قصائد القدماء كقول امرىء القيس :

ألا أيّها الليلُ الطويلُ ألا انجلَي بصبحٍ وما الإصْباحُ منكَ بأمثَلِ

فإن أول القصيدة :

قِفا نبْكِ مِن ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللَوى بين الدّخُولِ وحَوْمَلِ

وكقول أوس بن حجر :

إني أرقت ولم تأرق معي صاحي لمستكفٍّ بُعَيْدَ النوم نوّاحِ

من قصيدة أولها :

ودّع لميس وداع الصارم اللاحي قد فنّكت في فساد بعد اصلاحِ

* * *

وهكذا نرى أن السجع سواء كان نثراً أو شعراً له نظام متبع عند علماء البديع لا يصح العدول عنه أو الانحراف منه ، فهو لا يأتي اعتباطاً بلا تبصر ، وحيثما أردت السجع جئت به دون تفكر ؛ بل له سنن مرسوم ، وطريق محدود يقول الباقلاني[1] : إن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه ، كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر – إذا خرج عن الوزن المعهود – كان مخطئاً ، وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ..

---

(١) إعجاز القرآن ٥٩ ، ٦٤ .

ثم يقول : ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء ، فكان بعض مصاريعه من كلمتين وبعضها يبلغ كلمات ، ولا يرون في ذلك فصاحة ؛ بل يرونه عجزاً .

لزوم ما لا يلزم :

ومن السجع نوع يسمى الاعنات أو لزوم ما لا يلزم وهو : أن يلتزم الناثر في نثره ، أو الشاعر في شعره قبل روى البيت من الشعر أو الفاصلة من النثر حرفاً فصاعداً على قدر قوته وحسب طاقته .

فالأديب يلتزم ما لا يلزم ؛ لأنه ليس من الأحرف التي تجب المحافظه عليها في الشعر أو النثر ، كما أن السجع يتم بدونه .

ويحمد من هذا النوع ما ليس فيه كلفة ؛ لأن التكلف يذهب برونق الصنعة ، ويضعف هشاشة النفس له ، وحينئذ يكون تركه أجود من ذكره .

وقد جاء من ذلك في القرآن الكريم مواضع رائعة الحسن ، كقوله تعالى :

(والطّورِ وكتابٍ مَسْطُور) الطور ١ ، ٢ .
(فلا أقْسمُ بالخُنّس ، الجَوارِ الكُنّس) التكوير ١٥، ١٦ .
(والليل وما وسَقَ ، والقمرِ اذا اتسقَ) الانشقاق ١٧ ، ١٨ .
(ما أنتَ بنِعْمة ربكَ بمجْنون ، وانّ لكَ لأجْراً غيرَ مَمْنُون) القلم ٢ ، ٣ .
(فإذَا هـمْ مُبْصِرُون ، واخوانُـهُمْ يمدّونهْم في الغَيِّ ثم لا يُقْصِرُون) الاعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اللهم بك أحاول ، وبك أصاول » .
« شر ما في المرء شحٌ هالعْ ، أو جُبْن خالعْ » .
« الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلفْ ، وما تناكر منها اختلفْ » .

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لا يكن حبّك كلَفا ، ولا بغضك تلَفا » .

وقل استعمال هذا النوع في أشعار المتقدمين ، أما المتأخرون فقد أكثروا منه وتعمدوه ، حتى عمل منه أبو العلاء المعري ديواناً كبيراً سماه اللزوميات ، وكان ابن الرومي من أولع الناس به .

فمن ذلك قول المعري :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً ... وحقٌّ لسكان البسيطة ان يبْكوا
يحطّمنا صرف الزمان كأنّنا ... زجاجٌ ، ولكن لا يُعادله سبْكُ

وكقول الشاعر :

سلّم على قَطَن إن كنت نازلَه ... سلامَ من كان يَهْوَى مرةً قطَنَا
أحبّه والذي أرسى قواعدَه ... حبّاً إذا ظهرت آياتُه بطَنَا
ما من غريبٍ وإن أبدى تجلّده ... إلاّ تذكّر عند الغُرْبة الوَطَنَا

وقول ابن الرومي :

لِما تُؤْذِنُ الدنيا به من صروفها ... يكونُ بكاءُ الطفل ساعةَ يولَدُ
وإلاّ فما يبكيه فيها ، وإنّها ... لا وسعُ مما كان فيه وأرْغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ ، كأنّه ... بما سيلاقي من أذاها يُهدَّدُ

قال الشيخ عبد القاهر في أسرار البلاغة[1] :

وأصل الحسن في جميع المحسنات اللفظية أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيتها ، وتركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك ، كان كما قال أبو الطيب :

إذا لم تشاهدْ غيرَ حسْن شِيَاتِها ... وأعضائِها فالحسْنُ عنك مُغيَّبُ

وفيه نظر – هكذا يقول صاحب الأشارات والتنبيهات في نهاية الكلام عن

(١) أسرار البلاغة ١٣ وانظر الأشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ٣٠٤ .

البديع – ؛ لأن وجه الحسن غير وجه تحسينه للمعاني ، ومطلوبه هو الأول ، وما ذكره هو وجه التحسين ، فإن الشيء إذا كان حسناً ، يجب أن يكون جميع ما يتعلق به أيضاً حسناً ، وإلا لكان كالحسن الشائع ، والحق أن يقول :

وجه حسن ما تقدم من المحسنات اللفظية ، هو وجه حسن الشعر ، وهو التناسب ، فإن الجنس ميّال إلى الجنس ، والطبع ميّال إلى إيقاع المناسبه بين الأشياء ، ونفاره عن المتنافرات ، فإن التناسب من الاعتدال ، والنفس الكاملة مفطورة على محبته .

السَّـرِقات الشِّعْرِيَّـة



السَّـرِقات الشِّعْرِيَّـة

يقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) :[١]

والسرق داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهراً ، وقد يكون غامضاً ليس فيه غير اختلاف الألفاظ .

ولكن المحدثين قد عملوا على اخفاء السرقة بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، أو جبر ما فيه من نقص بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال ، والتصريح في أخرى . فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف اليه من هذه الأمور ما يجعله مخترعاً لهذا المعنى ومبتدعه .

والكشف عن السرقات والمقارنة بين معاني الأبيات الشعرية ونظمها حتى يمكن الحكم على الشاعر بأنه مبتدع أو متبع ليس في متناول الجميع ، وليس من شأن من لا يعرف من السرقة الا اسمها ، ووقف عند قشورها فيصعب عليه أن يلم بالواضح منها فضلاً عن الغامض ، وبالسطح قبل الوصول إلى الأغوار .

فباب السرقة[٢] لا ينهض به الا الناقد البصير ، والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله . ولست تعد جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق والغصيب ، وبين الاغارة والاختلاس ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به ، وبين المختص

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢١٤ ط عيسى الحلبي .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٨٣ .

الذي حازه المبتدىٔ فملكه ، فصار المعتدي مختلساً سارقاً ، والمشارك له محتذياً تابعاً ، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التي يصح أن يقال فيها : هي لفلان دون فلان .

فهناك أمور متقررة في النفوس متصورة للعقول ، يشترك فيها الفصيح والأعجم والشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد بالحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار -- فما كان شأنه كذلك ، وكانت السرقة عنه منتفية ، والاتباع فيه ممتنع .

الا أن مثل هذه الأمور المتناقلة المتداولة قد يصح فيها الاختراع والابتداع ويتبارى فيها الشعراء والكتاب فلا يعد من السرقة ولا يحسب من الأخذ ، وانما يكون الأصل فيه لمن انفرد به ، وأوله للذي سبق اليه : كوصف البرق بخطف الأبصار ، وسرعة اللمح ، وأنه كالقبس من النار ، وكالحريق المتضرم ، وكمصباح الراهب ، وكتشبيه الفتاة بالغزال في جيدها وعينيها أو في حسنها وصفائها .

فإذا تدبرت هذه الأمثلة وما شاكلها ، وجدت نفسك أمام صنفين من الكلام .

صنف مشترك عام الشركة لا ينفرد به أحد ، كحسن الشمس والقمر ، ومضاء السيف وبلادة الحمار وجود الغيث ونحو ذلك مما هو مركب في النفس تركيب الخلقة .

وصنف سبق المتقدم اليه ففاز ، ثم تداوله الناس بعد ذلك فكثر واستعمل على ألسنة الشعراء فحمى نفسه من السرق ، وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ ، كما يشاهد في تمثيل الفتاة بالغزال في جيدها وعينيها ، والمهاة في حسنها وصفائها ، أو البرق بالمصباح .

وقد يكون في هذا الباب ما تتسع له أمة وتضيق عنه أخرى ، ويسبق اليه قوم دون قوم ، لعادة أو مشاهدة أو مراس ، كتشبيه العرب الفتاة ببيضة النعامة ، ولعل في الأمم من لم يرها ، وحمرة الخدود بالورد والتفاح ، وكثير من العرب من لم يعرفهما .

هذه المعاني المتداولة التي يشترك فيها الناس قد يفضل أحدهم الآخر بانفراده :

بلفظة عذبة ، أو ترتيب حسن ، أو زيادة يهتدي إليها دون غيره ، فيصبح في يديه المعنى المشترك المبتذل شيئاً آخر يتصف بالابتداع والاختراع .

فتشبيه الخدود بالورد مثلاً أو تشبيه الورد بالخدود قد أكثر منه الشعراء ، وجرى على ألسنه العامة والخاصة ولا يمكن ادعاء السرقة فيه الا بتناول زيادة تضم إليه ، أو معنى يشفع به كقول أبي سعيد المخزومي :

والـــوردُ فيـــه كـأنمـا أوراقـــه .. نُـزعت ورُدّ مكانهن خـــدودُ

فهو لم يزد على مجرد تشبيه الورد بالخدود وهو المعنى الجاري على ألسنة الناس ، ولكن عندما كساه هذا اللفظ الرشيق ، أحسست في نفسك عنده هزة ، تعلم بها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها .

فالشاعر حين شبه الورد بالخدود لم يكن في ذلك قدح في شاعريته ، ولا اتهاماً له بالسرقة ، وإنما هو أحق بالتفضيل وأولي المدح ، حين أخرج هذا المعنى المبتذل في صورة حسنة ونظم أخاذ بما أضاف إليه من لفظ رشيق .

فالمعاني المشتركة - اذن - لا تدخل في باب السرقات ، إلا إذا أضاف الشاعر إليها شيئاً جديداً فينسب الفضل إليهعندئذ لما له من فضيلة السبق بكسوة المعنى ثوباً قشيا ورونقاً عذباً .

والمعاني المشتركة التي لا تدخل في باب السرقات كثيرة في الشعر العربي .

كقول جرير : -

كـأن رؤوسَ القـومِ فـوق رمـاحِنـــا .. غداَة الوغي تيجانُ كسرى وقيصرا

وقريب منه قول أبي تمام : -

أبدلتَ أرؤوسهم يوم الكـريهـة مـــن .. قَنـا الظهورِ قَنا الخطّيّ مُدَّعمـا

فهذا ليس من باب السرقات ، فليس فيه أكثر من رفع الرؤوس على القنا ، وهذا معنى مشترك لا يسرق .

ومن ذلك التوسل بالشباب وجعله شفيعاً لدى الغانيات ، فهو معنى مبتذل

لا يدخل في باب السرقات . كقول الوراق :

كفـاك بالشيب ذنبـا عنـد غـانيـــة .. وبالشباب شفيعا أيهـا الرجـل

ومثله قول النمري :

وإذا تـوسّل بـالشباب أخـو الهـوى .. ألفـاه نعْـم وسيلـةُ المـوسّل

ومن المعاني المشتركة التي لا تؤخذ على الشعراء ولا تعد من المثالب .

قول علي بن جبلة :

يـــأسو الـــذي يَجـــرح أعداؤه .. ومـــا لمـا يجْـــرحـــه آسِ

وقول أشجع :

فمـا يـرفـعُ النـاسُ مـن حَطّـــه .. ولا يضع النـاسُ مـن يـرفـعُ

وقول أبي تمام :

فـأن أفسدت شيئـاً فليس بصـالـحٍ .. وان أصلحـتَ شيئاً فليس بفاسدِ

وقول الطيب :

فـلا تـرتُق الأيـام ما أنـت فـاتـقٌ .. ولا تَـفْـتِـقُ الأيامُ ما أنت راتـقُ

فالمعنى مشترك بين هذه الأبيات الأربعة ، وكلها تدل على سطوة الممدوح وقوة شكيمته ، فكلمته نافذة ، وحكمه قاطع ، وليس في مقدور الأيام ولا في مقدور الناس أن يغيروا مما يراه شيئا ، سواء في إحسانه أو في إساءته ، ومع هذا الاشتراك في المعنى لا يعد أحدهم آخذاً من الآخر ، ولا يدخل في باب السرقات ، وإن كان الفضل للمتقدم والسبق له .

ومما يجري هذا المجرى .

ما قاله ذو الأصبع العدواني :

أطـاف بنا ريْبُ الـزمـانِ فـداسَنـا .. له طائفٌ بالصالحين بصيـــرُ

والبحتري :

ألـم تـر للنوائـبِ كيـف تسمُـو .. إلى أهـلِ النوافِل والفُضُـول

والمتنبـي :

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لـذا الـزمـنِ .. يخلو من الهَمِّ أخلاهم من الفِطَنِ

وهو ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أعظم الناس بلاء الأمثل فالأمثل » .

ومن المعاني المشتركة بين المتقدمين والمتأخرين حتى بلغت حد الابتذال :

فراق الرجل وطنه وأصدقاءه إذا لم يجد حسن المثوبة ، أو شعر بالضيم .

يقول البحتري :

وإذا مـا تنـكّـرت لي بـلادٌ .. أو صديـقٌ فإنني بالخيـارِ

وقال ابن معذّل فأحسن وأوجز ، لكنه اقتصر على البلد :

إذا وطـنٌ رابنـي .. فـكـلُّ بـلادٍ وطَـنْ

وقال أبو الطيب :

إذا صـديـقٌ نـكّـرتُ جـانبَـهُ .. لـم تعْنِي في فـراقـه الحِيَـلُ

فالمعنى واحد مشترك بين الشعراء ، وللبحتري الفضل لسبقه وما في بيته من طرافة .

وقد يأخذ الشاعر المعنى ويزيد عليه فيكون هو المتقدم على غيره .

قال الأفوه الأوديّ :

وتـرى الطيـرَ عـلى آثـارنـا .. رأْيَ عيـنٍ ثقـةً أن سَتُمَـارْ

وقال أبو نواس :

تتـأبـىّ الطيـرُ غُـدْوتَـه .. ثقـةً بالشِبْـع مِـن جَـزَرهْ

وقال أبو تمام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعلامِه ضُحىً .. بِعقْبانِ طيرٍ في الدماءِ نواهِلِ
أقامتْ مع الراياتِ حتى كأنها .. من الجيشِ إلا أنها لم تُقاتِلِ

زعم كثير من النقاد أن أبا تمام زاد عليهم بقوله : « الا أنها لم تقاتل » فهو المتقدم ، يقول القاضي الجرجاني[1] : وأحسن من هذه الزيادة عندي قوله : « في الدماء نواهل » وإقامتها مقام الرايات وبذلك يتم حسن قوله : إلا أنها لم تقاتل » .

على أن الأفوه الأودي قد فضل الجماعة بأمور :

منها السبق وهي الفضيلة العظمى .

والآخر قوله « رأى عين » فخبر عن قربها لأنها إذا بعدت تخيلت ولم تر وإنما يكون قربها متوقعاً للفريسة ، وهذا يؤيد المعنى .

ثم قال : « ثقة أن ستمار » فجعلها واثقة من المسيرة ، ولم يجمع هذه الأوصاف غيره .

فأما أبو نواس فانه نقل اللفظ ولم يزد فيفضل .

وقد يرى اللاحق من الشعراء معنى لشاعر سابق فيه نقص أو ضعف فيأخذ المعنى بعد أن يجبر ما فيه من نقص ، ويدفع ما به من ضعف .

قال أبو تمام :

غربتْه العُلاَ على كثرة الأهْـ .. ـل فأضحْى في الأقربين جَنيبَا
فليطلْ عمرُهُ ، فلو مات في مرْ .. ومُقيماً بها لماتَ غريبَا

فقد أساء أبو تمام بذكر الموت في المديح ، فلا حاجة به إليه ، والمعنى لا يختل بفقده ، ومن مات في بلده غريبا فهو في حياته أيضاً غريب ، فأي فائدة في استقبال الممدوح بما يتطير منه .

تناول أبو الطيب هذا المعنى وحذف ما به من تطير ونقاه من أو شابه .
فقال :

---

(١) الوساطة ٢٧٤ .

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطنـــي .. إن النفيس غريب حيثما كـانـا

فأحسن ولم يسيء .

وقد يعجب الشاعر الفحل ببيت من الشعر سمعه من قائله أو وصل إليه عن غيره فيغتصب البيت ويعزوه لنفسه كما فعل الفرزدق إذ سمع جميلا ينشد :

ترى الناسَ ما سرنا يسيرون خلْفنـــا .. وان نحنُ أوْمَأْنـا إلى الناس وقَّفُوا

فقال : أنا أحق بهذا البيت ، فأخذه غصباً .

وكما زعم دعبل أن أبا تمام قد أخذ قصيدته الرائية التي رثى بها محمد بن حميد الطوسى من « أبو مكنف المزني في رثاء ذفافة القبس :

قال أبو مَكْنَف :

أبعْد أبي العباس يُستعتب الـدهـــرُ .. وما بعده للدهر عُتبى ولا عُذرُ
ألا أيها النـاعـي ذُفافـة والنـــدى .. تعِسَتْ وشَلّـتْ من أنامِلك العشْر
إذا ما أبو العباس خليّ مكـانــــه .. فما حملتْ أنثى ولا مسّها طُهْرُ
ولا مَطـرتْ أرضـاً سمـاءٌ ولا جـرت .. نجومٌ ولا لـذّتْ لشاربها الخمْـرُ
كـأن بني القعقـاع بعـــد وفـاتــه .. نجومُ سماء خرّ من بينها البـدرُ
تُـوفّيت الآمـال بعـد ذُ فـافـــة .. وأصبح في شُغْل عن السفَر السَفَرُ
يُعَزَّوْنَ عـن ثـاوٍ تُعَزّى بـــه العُـــلاً .. ويبكي عليه البأسُ والمجدُ والشعرُ
ومـا كـان إلاّ مـالٌ مـن قـلّ ما لُــه .. وذُخـرا لمـن أمسى وليس له ذُخرٌ

فأخذ أبو تمام أكثر هذه القصيدة ، وجعل مكان « بني القعقاع » بني بنهان » وأبدل بأسم « ذفافة » « محمداً » .

يشير إلى قول أبي تمام :

كـــأن بني بنهـــان يـــوم وفـاتــه .. نجوم سماءٍ خـرّ من بينها البـدر
تُـوفيـــت الآمـــال بعـد محمـد .. وأصبح في شغلٍ عن السفَر السفْر
يُعَـزون عـن ثـاوٍ وتُعـزّى بـه العُـلا .. ويبكي عليه الجود والبأس والشعر

وأقبح السرقات ما يدل على نفسه باتفاق المعنى والوزن والقافية .

قال أبو تمام :

ومــا سافــرت في الآفــاق إلا .. ومــن جَدْوَاكَ راحلتي وزادي

أخذه أبو الطيب فقال :

مُحِبّكَ حيثمــا اتجهــتْ ركــابي .. وضيفُك حيث كنت من البلادِ

والمصراع الأول أيضاً احتذى فيه قول البحتري :

متــى مــا أسيّــر في البـلاد ركـائبي .. أجد سائقـي يهوي إليك وقائدي

وقد يلجأ الشاعر إلى الأخذ فلا يحسن ولا يزيد ، وإنما يقصر عن سابقه (١) فتلحق به المذمة ، ويلتصق به العيب ، ومن ذلك ما قاله أشجع :

وعلى عـدوك يـا ابـن عـمّ محمد .. رصدان : ضـوءُ الصبح والأظلامُ
فـإذا تنبّـه رعْتَـه ، وإذا غفـا .. سلّت عليه سيوفَـك الأحـلامُ

فيأتي أبو الطيب ويأخذ المعنى ويقصر فيه :

يـرى في النـوم رمحَـك في كُـلاه .. ويخشى أن يـراهُ في السهـاد

فقصر في ذكر الهاء ؛ لأنه أراد أن يقابل به النوم ، وبذلك يتم المعنى ، وليس كل كل يقظة سهاداً ، إنما السهاد امتناع الكرى في الليل ، ولا يسمى المنصرف في حاجاته بالنهار ساهداً وإن كان مستيقظاً .

ومن الأخذ الذي فيه تقصير قول ابن جبلة :

ومـا سوّدتْ عِجْـلاً مـآثـرَ عزمهـمْ .. ولكن بهم سادتْ على غيرها عِجْل

وهذا معنى سوء يقصّر بالممدوح ، ويغضّ من حسبه ، ويحقّر من شأن سلفه ، وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه ، والآباء تزداد شرفاً به ، فيجعل

(١) الوساطة ٢٥٣ ، ٣٧٣ ٣٧٥ .

لكل منهم في الفخر حظا ، وفي المدح نصيباً ؛ لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ، ومنتقل إلى ولده كانتقال ما له ، فإن روعي وحرس ثبت وازداد ، وإن أهمل وضيّع هلك وباد ، وكذلك شرف الولد يعم القبيلة ، وللوالد منه القسْم الأوفر ، ولو اقتصر على قوله : « بهم سادت على غيرها عجل » لوجد العذر إليه مسلكا ، ولأمكن أن يقال إنّ عجلا سادت بهم ، وبأفعالها أيضاً تسود القبيلة ، لكنه وعر هذه الطريقة بقوله :

« وما سودت عجلا مآثر عزمهم » فجعل الرجل بائنا لاحظّ له في حسب آبائه وشرفهم .

والجيد في هذا المعنى ما سبقه إليه زهير بقوله .

وما بكُ من خير أتَوه فإنما .. توارثَه آباءُ آبائهم قبْلُ

وجرى أبو الطيب على منهاج ابن جبلة فقال :

ما بقومي شرُفْتُ ، بل شَرُفوا بي وبنفس فَخَرْتُ لا بجُدُودي

فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه ، وهذا هجو صريح ، وإن كان هناك من يلتمس له العذر ؛ لأنه أراد أنه يكتفي بالفخر عليهم بنفسه ، ولا يفتقر إلى مفاخر جدوده ، فيتركها وادعة موفورة .

والقاضي الجرجاني[٢] لا يقصر السرقة على ما ظهر منها ودعا إلى نفسه ، بل يدعو الناقد إلى النظر فيما كمن ونضج عن صاحبه ، فلا يكتفي بتتبع الأبيات المتشابهة والمعاني المتناسخة ، لإظهار التماثل في الألفاظ والظواهر دون أن يغوص إلى المقاصد والأغراض ، وإنما على الناقد أن يتأمل الأبيات حتى يعرف انتساب بعضها إلى بعض ، واتصال كل واحد منها بصاحبه ، مع افتتان مذاهبهما واختلاف مواقعهما :

فقول لبيد :

---

(١) الوساطة ٢٥٣ .

(٢) الوساطة ٢٠١ .

ومـا المـالُ والأهلـون إلا ودائـــعٌ .. ولا بـدّ يوما أن تُـردَّ الـودائــعُ

وقول الأفوه الأودي :

إنمـا نعمـــةُ قـــومٍ متعـــــةٌ .. وحياةُ المـرء ثـوبٌ مستعــــار

فبين البيتين تناسب ، وأن عند الأفوه ذكر الحياة وعند لبيد ذكر المال والولد ، وكان أحدهما جعل وديعة والآخر عارية .

وعلى الناقد البصير أن يعرف أن بيت المِنقرىّ :

ومـا المـرءُ إلا حيــثُ يجعــلُ نفسَه .. في صالح الأخلاق نفسَك فاجعلِ

هو من قول الآخر :

فنفسكَ أكرمْها ، فإنك إنْ تَـهُـــنْ .. عليك فلن تَلقي لها الدهرَ مُكْرِمَا

وأن يدرك الناقد أن بيت المتنبي :

وفـوارسٍ يُحيـــي الحمـامُ نفوسَها .. فكـأنها ليسْت مـن الحَيـوان

منقول من قول زهير :

تـــراه إذا مـــا جئتَـه متهـلّلاً .. كأنك تعطيه الذي أنتَ سائلـه

لأن زهيراً جعله يسر بالبذل حتى كأنه أخذ ، وجعله المتنبي يسرع إلى القتل حتى كأنه حياة ، فالمعنيان واحد في التحصيل .

فالأخذ قد يكون خفيا كما يكون ظاهراً ، ولا بد للناقد أن يتغلغل في المقاصد والأغراض حتى يدرك الصلة بين المعاني ، والتناسب بين الأغراض ، فيرد هذا إلى ذلك ولا يخفي عليه شيء من تفنن الشعراء .

وينبه القاضي الجرجاني على تفنن الشعراء في السرقة فيلجئون إلى طمس معالم السرقة بتحويل معنى البيت إلى معنى آخر ونقله من غرض إلى غرض ، فتنطلي هذه السرقة على الغرير ، وإن كانت لا تخفى على البصير فيقول : « وحتى لا يغرك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيبا والآخر مديحاً ، وأن يكون

هذا هجاء وذاك افتخاراً ، فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه ، وعن وزنه ونظمه ، وعن رويه وقافيته ، فإذا مر بالغبي الغافل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما والوصلة التي تجمعهما »[١] .

فكثير ينسب بصاحبته فيقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما .. تمثل لي ليلى بكل سبيل

وأبو نواس يمدح الرشيد فيقول :

ملك تصوّر في القلوب مثالُه .. فكأنه لم يخْلُ منه مكان

فالأول في النسيب والثاني في المديح ، فيظن الغافل أن أحدهما من واد والآخر من واد ثان ، ولكن العالم لا يشك في أن أحدهما من الآخر ، وأن الصلة بين البيتين واضحة .

وقد يجنح الشاعر إلى قلب المعنى في بيت سبقه إليه شاعر ، فيظن أن ساحته قد برئت من تهمة النقل ، ولكن الناقد البصير يقف له بالمرصاد فيرد إلى مصدره الأول الذي أسعفه بالأخذ وأوحى إليه بالقلب .

يقول أبي تمام .

كريمٌ متى أمدْحه والورَى .. معي وإذا ما لُمتُه لمتُه وحْدي

فيعكس ابن أبي طاهر المعنى ويقول :

يشترك العالم في ذمّه .. لكنني أمدحُه وحدي

ثم يعقب الجرجاني على ذلك فيقول[٢] :

---

(١) الوساطة ٢٠٤ .

(٢) الوساطة ٢٠٨ .

وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة .

وقد يغمض حتى يخفي ، وقد يذهب منه الواضح الجليّ على من لم يكن مرتاضا بالصناعة ، متدرباً بالنقد .

(والحاتمي ت ٣٨٨ هـ) يتناول السرقات الشعرية وأنواعها ومراتبها في الفصل الخامس من كتابه حلية المحاضرة في صناعة الشعر .

فيقول نقلاً عن النوفليّ عن أبي طاهر أن[1] «كلام العرب ملتبس بعضه ببعض ، وآخذ أوائله من أواخره ، والمبتدع منه والمخترع قليل إذا تصفحته وامتحنته ، والشاعر المحترس المتحفظ المطبوع بلاغة وشعراً من المتقدمين والمتأخرين لا يسلم أن يكون كلامه آخذا من كلام غيره ، وإن اجتهد في الاحتراس ، وباعد في المعنى ، وأقرب في اللفظ ، وأفلت من شباك التداخل ، فكيف يكون ذلك مع المتكلف المتصنع ، والمعتمد القاصد ....

ومن ظن أن كلامه لا يلتبس بغيره ، فقد كذب ظنه ، وفضحه امتحانه ، ... ولو نظر ناظر في معاني الشعر والبلاغة حتى يخلص لكل شاعر وبليغ ما انفرد به من قول ، وتقدم فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ولا بعده ، لألفى ذلك قليلاً معدوماً ، ونزراً محدوداً » .

ويقول في موضع آخر[2] : وقد أجمع علماء الشعر ونقاد الكلام ، وأرباب الصناعة أن من أخذ معنى أو لفظاً أو جمعاً لهما ، وقع الحكم على أن المبتدع منهما أعلاهما سناً ، وأقدمهما موتا . وأن المتبع هو المتأخر منهما ، لاستقرار ذلك في الأكثر . فإن جمعهما عصر كان الأول منهما ما هو أكثر إحساناً وتناسبا في الكلام .

فإن وقع إشكال في ذلك ترك لهما ، ولم يقض لأحدهما بالاختراع دون صاحبه .

---

(١) حلية المحاضرة الحاتمي ٢٨/٢ ط العراق .

(٢) حلية المحاضرة الحاتمي ٦٩/٢ ، ٧٠ .

فأما الحكم في الاحتذاء والاتباع ، فإن المحتذي إذا تناول المعنى فكشف قناعه ، وأرهف لفظه ، وأحسن العبارة عنه ، واختار الوزن الرشيق له حتى يكون بالأسماع أشد علقا ، وفي النفوس ألطف مسلكا ، كان أحق به ، ولا سيما إذا أخفى مسراه .... ويقع الحكم للشاعر بالبلاغ والابانة ... وإن كان للسابق فضيلته التي لا يدفع عنها ، ولا بد من الاعتراف بها ؛ إذ كان مطلع كواكبها في آفاقها ، وقادح زنادها .

الاشتراك في اللفظ [1] :

يقول الحاتمي : وقد اعتبر قوم هذا سرقا ، وليس بسرق ، وإنما هي ألفاظ مشتركة محصورة يضطر إلى المواردة فيها ، إذا اعتمد الشاعر القول في معناها .

ومن هذا الباب قول عنترة العبسيّ :

وخيلٍ قد دلَفتُ لها بخيْلٍ .. عليها الأسْد تهتصِر اهتصارا

فقال عمرو بن معدى كرب :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. تحية بينهم ضربٌ وجيعُ

وقالت الخنساء :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. فدارتْ بين كبشَيْها رَحاها

وقال أعرابي :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. ترى فرسانها مثل الأسود

ثم يحلل لنا الحاتمي الأسباب التي تضطر الشاعر أن يستعين بألفاظ غيره ، فهو لا يجد بديلاً عنها في التعبير عن المعنى الذي قصده ، ولا يستطيع التحول عن هذه الألفاظ إلى ما هو أجلّ منها .

---

(١) الحلية ٢/٦٨ .

« فلو اجتهد هؤلاء الشعراء عند قصدهم الأخبار بما أخبروا به من هذا الوصف أن يوردوه بغير هذه العبارة وهذه العروض ما استطاعوا ؛ لأن اللفظ يضطرهم ، واعتماد العبارة الشريفة يقود أعنّتهم . فرب معان تختص بألفاظ شريفة لا يمكن تعدّيها إلى ما هو أشرف منها » .

وقد يتكافؤ المتبع والمبتدع في إحسانهما ، كما يتكافآن في الأساءة فمن الأول وهو التكافؤ في الأحسان[1] قول امرىء القيس :

فلــو أنهـا نفسٌ تمــوتُ جميعهـــا .. ولكنهـا نَفسٌ تَساقـطُ أنْفُسا

فقال عبده بن الطبيب :

فمما كـان قَيس هلكه هلك واحـد .. ولكنـه بُنْيـان قـومٍ تهـدّمـا

ومن ذلك قول الأعشى :

إذا حـاجـة ولّتـك لا تستطيعهـــا .. فخذْ طرفا من غيرهـا حين تُسبق

فقال عمرو بن معدى كرب :

إذا لـم تستطـع شيئـا فـدعــه .. وجـاوزه إلى مـا تستطيـــع

فتكافأ في هذين البيتين سواء المتبع والمبتدع تكافؤ لا يخفي على من يعرف أسرار الكلام .

ومن الثاني وهو التكافؤ في الأساءة والتقصير [2] .

والتهافت في قبح الاتباع قول الشماخ في مدح عرابة الأوس بقصيدة يخاطب فيها ناقته :

إذا بلّغتنـي وحملـتِ رحلــي .. عرابة فاشرقي بـدم الـوتيـن

ولما سمع الجلاح هذا البيت قال للشماخ : « بئس المجازاة جازيتها به » فلا أحد

---

(١) الحلية ٧٣/٢ .

(٢) الحلية ٨٣/٢ .

من علماء الشعر يحمد هذا المذهب من الشماخ ، ولا أجد لها وجها مُرضيا في وصف النوق التي تمتطيها الشعراء إلى الممدوحين .

ورغم هذه الأساءة فقد اقتفى ذو الرّمةّ مذهب الشماخ في الأساءة فقال :

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغتِه .. فقام بفأسٍ بين وصليْك جازرُ

واحتذى حذوهما أبو دهبل الجمحي فقال :

يا ناق سيري ، وأشرقي .. بدمٍ إذا جئتِ المغيرة

ويتحدث الحاتمي عن السرقات الخفية التي يلجأ إليها الشعراء الحاذقون وصناع الكلام بأن ينقلوا المعنى عن وجهه الذي وجه له ، من الوصف مثلاً إلى المدح أو قلب المعنى إلى غير ذلك مما تحدث عنه القاضي الجرجاني .

ومن السرقات الخفية عند الحاتمي[1] هي ما يلجأ إليها الشعراء المطبوعون حين يخفون السرق ويلبسونه اعتماداً على منثور الكلام دون منظومه ، واستراقا للألفاظ الموجزة ، والفقر الشريفة ، والمواعظ الواقعة ، والخطب البارعة .

من ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد السفلى » فنظم أبو العتاهية بعض هذا اللفظ وأخلّ ببعضه فقال .

افرحْ بما تأتيه من طيِّب .. إن يدَ المعطِي هي العُلْيا

ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أنا لكم ذُبالة تضيء وتحترق » .

فقال العباس بن الأحنف :

أحرَمُ منكم بما أقول وقد .. نال به العاشقون مَن عَشِقوا
حتى كأني ذُ بالةٌ نُصبتْ .. تُضيء للناس وهْي تحترقُ

وقال عبد الله بن مسعود : « إن الرجل يظلمني فأرحمه » .

---

(١) الحلية ٢/٩٢ .

فنظم محمود الوراق هذا المعنى ، وقال :

إني شكرت لظالمي ظُلمي .. وغفرتُ له ذاك على عِلم
ما زال يظلمني وأرحمُه .. حتى رثيت له من الظُلم

ومن السرقة الخفية ضروب دقيقة من الأشارة إلى المعنى ، وإخفاء السر تستدعي لطف النظر ودقة الملاحظة من الآخذ[1] .

فمن لطيف النظر والملاحظة قول أوس بن حجر :

سأجزيكِ أو يجزيك عني مُثَوِّبٌ .. وحسْبُك ان يُثني عليك وتُحمدي

وهذا ينظر اليه قول الحطيئة نظراً خفيا حتى يكشف قناعه :

مَن يفعل الخيرَ لا يُعدمْ جوازيَه .. لا يذهب العُرْف بين الله والناسِ

فقوله : « لا يذهب العرف بين الله والناس » هو قول أوس بن حجر :

« سأجزيك أو يجزيك عني مثوّب » ؛ لأن المثوّب هو الله عز وجل وإن كان في بيت الحطيئة زيادة بذكر الناس .

ومن لطيف النظر والملاحظة قول الشاعر :

إذا بلّ من داء به ، ظن أنه .. نجا ، وبه الداء الذي هو قاتله

نظر إلى هذا المعنى ابن الرومي نظراً خفياً فقال :

نظرتْ فاقصدت الفؤادَ بسهمِها .. ثم انثنتْ عنه فكاد يهيمُ
ويْلاه ! ان نظرتْ ، وانْ هي أعرضتْ .. وقعُ السهام ونزْعُهنّ أليم

ويورد لنا الحاتمي أنواع السرقات ويبدأ بالانتحال . فيقول[2] :

(١) الحلية ٨٦/٢ .
(٢) الحلية ٣٠/٢ ، ٣١ ، ٣٢ .

أجمع العلماء بالشعر وأصحاب العربية أن امروء القيس أول من بكى الديار ، ورثى الآثار ، وإذا تصفحت شعره استدللت ببعضه على بطلان هذا الأجماع ، ألا ترى إلى قوله :

عـوجـا عـلى الطلـل المحيل لعلنا .. نبكي الديار كما بكى ابن حَذام

وإذا سئل العلماء عما وصف به ابن حذام الديار ، أنشدوا أبياتاً من « قفا نبك » وذكروا أن امروء القيس انتحلها فسارت له ، وخمل ذكر ابن حذام .

وحكي أبو عبيدة أن ابن حذام الكلبي كان يصحب امروء القيس بن حجر الكندي ، أنه أول من وصف الديار .

كذلك بيت النابغة الذبياني :

فلست بمستبـق أخـا لا تلُمـه .. على شعَث ، أيُّ الرجال المهذّب

تزعم بنو سعد أن هذا البيت لرجل منهم .

وقد حكي أبو عبيدة أيضاً أن معظم الشعر الذي يرويه الناس لعنترة هـو لهراش بن شداد .

ويذكر الحاتمي أن الفرزدق انتحل قول أخيه الأخطل بن غالب المجاشعي :

وركْـبٍ كـأن الريح تطلب عندهـم .. لها تِـرةً من جَذبها بالعصائـب

ويذكر هذا البيت وسبعة أبيات أخرى بعده .

وكان الأخطل هذا شاعراً طويل اللسان ، كثير المحاسن ، فكسفه الفرزدق فانطوى فضله . وكان أبو عمرو بن العلاء لا يعبأ بشعر الفرزدق ، ويظن أنه ليس له ملكة رياضة الشعر ونحى عليه ، واستنشده يوماً فأنشده :

كـم دون ميّـة من مستعمـل قـذِفٍ .. ومن فَـلاة بها تُستودع العيـسُ

فقال : يا فرزدق أنت قلت هذا ؟ فقال : أكتمها علي ! فوالله لضوالّ الشعر أحب إليّ من ضوالّ الأهل .

ثم يتحدث الحاتمي عن الاغارة[1] .

وهو أن يسمع الشاعر المغلق الأبيات الرائعة ، ندرت لشاعر في عصره وهي بشعره أليق وبكلامه أعلق ، فيغير عليها مصافحة ، ويستنزل شاعرها عنها قسراً ، فيسلمها إليه اعتماداً لسلمه ، ومراقبة لحربه ، وعجزاً عن مساجلته ... ومن ثم استمرت للفرزدق الإغارة على شعر جميل وغيره ، فإنه عاور جماعة من الشعراء في عصره على قطع من أشعارهم جرت في أساليب كلامه ... فسلموها له عنوة ، وصفحوا عنها نكولا عنه .

ويضرب الأمثلة على ذلك . فقد وقف الفرزدق يوماً على الشمردل اليربوعي وهو ينشد لنفسه :

وما بين من لم يُعط سمْعاً وطاعةً .. وبين تميمٍ غير جزّ الغَلاصِم

فقال الفرزدق : « لتتركنّه ، أو لتتركنّ عرضك » فقال له الشمردل « خذه ، لا بارك الله لك فيه » فهو في قصيدته التي أولها :

تحنّ إلى زوْر اليمامة ناقتي .. حنينَ عجول تَبتغي البوَّ رائم

التي يهجو فيها جريرا .

ومن ذلك أيضاً أن موسى شهوات أنشد قصيدة على الراء أمام الأحوص ، أحسن فيها حتى مر بهذا البيت :

وكذاك الزمان يذهب بالنـ .. اس ، وتبقى الديارُ والآثار

فقال الأحوص على رويها قصيدة أدخل فيها هذا البيت ، فقال موسى شهوات :

« ما رأيت مثلك يا أحوص ! أنشدتك قصيدة لي ، فذهبت بأفضل بيت فيها ، فقال الأحوص : « والله ما هو لي ولا لك ، وما هو إلا للبيد حيث يقول :

وكذاك الزمان يذهب بالنـ .. اس وتبقى الديار والآثار

---

(١) الحلية ٣٩/٢ ٤١ .

فعفـــا آخـــر الـزمـان عليهـــــــم .. فعلى آخـر الـزمـان الـديـــار

وينتقل الحاتمي إلى التوارد[1] :

وهو أن يتفق الشاعران في المعنى ويتواردا في اللفظ دون أن يلقى أحد منهما صاحبه ولا سمع بشعره . ويعلل أبو عمرو بن العلاء هذه الظاهرة فيقول : « تلك عقول رجال توافت على ألسنتها » .

فامرؤ القيس يقول :

وكـل ذي أبـل مـود فتـاركهـــا .. وكـل ذي سلب لا بـــد مسلوب

وعبيد بن الأبرص أيضاً يقول :

وكـــل ذي إبـل مُـودٍ يـورِّثهـــــا .. وكـل ذي سلـب لا بـد مسلوب

وعبيد وامرؤ القيس كانا في زمن واحد .

فأما قول امروء القيس :

وقـد طـوفـت بـالآفـاق حتـــى .. رضيت مـن الغنيمـة بالاياب

وقول عبيد بن الأبرص مخاطباً لامرئ القيس في شعره :

ولـو لاقيـت غلبـــاء بـن حـــزم .. رضيـت مـن الغنيمـة بالأيـاب

فأظن عبيدا ردّد هذا المصراع ، تعريضا بقوله ، لا على جهة السرقة .

والاجتلاب[2] ليس عيبا ولا يعد من السرقات .

وهو أن يأخذ الشاعر البيت فيدخله في شعره على طريق التمثيل وقد تفعل العرب ذلك ، فلا يريدون السرق .

(١) الحلية ٢/٤٥ ٤٦ .

(٢) الحلية ٢/٥٨ ٦٠ .

ويروي الرواة عن الأصمعي أنه قال : ربما اجتلب الشاعر البيت ليس له ، فاجتذبه من غيره ، فيورده شعره على طريق التمثيل به ، لا على طريق السرق لـه كما قال النابغة الذبياني :

تمـزّزتهـا والـديـكُ يـدعـو صَباحه .. إذا ما بنو نعْش دنـوا فتصوّبـوا

فأجتلب الفرزدق هذا البيت ، ولم يسلبه ، ولا حاول أن يغير عليه ، - وان كانت الغارة عادته - وإنما أورده اجتلابا واستلحاقا ، وكان أبو عمر ابن العلاء لا يرى ذلك سرقا .

وقد يجلب الشاعر البيت أو البيتين من شعر شاعر ، أو المعنى والمعنيين ، إذا كان الشاعر مخاطباً له ، وكان هو مجيبا عن مخاطبته ، وكذلك يلقي في شعر جرير والفرزدق ، ولا نرى ذلك سرقا .

كقول الفرزدق :

إنّ الـذي سمـك السماءَ بنـى لنـا .. بيتاً دعائمـه أعـزُّ وأطـولُ

فقال جرير رادا عليه :

إن الـذي سمـك السماء بنـى لـنـا .. عـزا عَـلاك فمـا لـه من مَنْقِلِ

الاهتدام[1] :

وهو افتعال من الهدم ، فكأنه هدم البيت من الشعر ، تشبيهاً بهدم البيت من البناء ؛ لأن البيت من الشعر يسمى بيتاً لاشتماله على الحروف كما يشتمل البيت على ما فيه .

ومن ذلك قول كثير .

قـامـت تـودعنـا والعيـن ساجمـة .. كـأن انسانها في لُجّـة غَـرِ قُ
ثـم استـدار عـلى أرجـاء مُقْلَتهـا .. مُبـادراً خلسات الطرْفَ يَسْتبق
كـأنـه حيـن مـار المأقيـان بـه .. دُرٌ تسلـل مـن أسلاكـه نسقُ

---

(١) الحلية ٢/٦٤ ٦٥ .

فاهتدم فيها قول جميل :

قامت تودعنا والعين ساجمة .. إنسانها بفضيض الدمع مكتحل
ثم استدار على حوراءَ ساجية .. حتى تبادر دمعها الهمل
كأنه حين مار المأقيان به .. درّ تقطع منه السلك منفصل

التلفيق والترقيع[1] : وهو ترقيع الألفاظ ، وتلفيقها ، واجتذاب الكلام من أبيات ، حتى ينظم بيتا . فمن التلفيق قول يزيد بن الطثرية :

إذا ما رآني مُقبلا غضّ طرفَه .. كأن شعاعَ الشمس دوني يُقَابلُهْ

فقوله : « إذا ما رآني مقبلاً » من قول جميل :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنيّة .. يقولون : من هذا ؟ وقد عرفوني

وقوله « غضّ طرفه » من قول جرير :

فغضّ الطرف إنك من نُمير .. فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

وقوله « كأن شعاع الشمس دوني تقابله » فمن قول عنترة بن عكبرة الطائي :

إذا أبصرتني أعرضت عني .. كأن الشمس من قبلي تدور

٣

وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) تناول السرقات الشعرية في الجزء الثاني من كتابه العمدة وهو في حديثه عن السرقات لا يخرج بحال عما سبقه إليه الحاتمي في حلية المحاضرة ، والجرجاني في الوساطة .

فالسرقة عنده كما عند الحاتمي باب متسع جداً لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة الا على البصير الحاذق بالصناعة ، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل[2] .

---

(١) الحلية ٩٠/٢ .

(٢) العمدة ابن رشيق ٢٨٠/٢ ط محيي الدين .

وسائر الألفاظ المبتذلة لا يسمى تناولها سرقة ؛ لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر ، فهي مباحة غير محظورة ، إلا أن تدخلها استعارة ، أو تصحبها قرينة تحدث فيها معنى ، أو تفيد فائدة ، فهناك يتميز الناس ويسقط أسم الاشتراك . وقد نص عليه القاضي الجرجاني انه من المنقول المتداول المبتذل .

أما الاشتراك في المعاني فنوعان[1] :

أحدهما : إذا اختلفت العبارة عنهما وتباعد اللفظان ، فذلك هو الجيد الحسن كقول عبدة بن الطبيب يصف ثوراً وحشياً :

مُجْتابُ نِصْعٍ جديدٍ فوق نُقْبتِه .. وفي القوائم من خالٍ سراويلُ

وقال الطرمّاح يصف ظليما :

مُجتاب شملة بُرْجدٍ لسَراتِه .. قدْراً فأسلَم ما سواه البُرْجُد

فوصف الأول بياض الثور وسواد قوائمه وتخطيطها ، فشبه ظهره كأن عليه نصعا جديداً ، وهو الثوب الأبيض ، وشبه ما في قوائمه من السواد والتخطيط بسراويل من الخال ، وهو ضرب من الوشي .

وقال الثاني : انه مجتاب شملة برجد ، يريد ما على الظليم من قرونه ، والبرجد : كساء أسود مخمّل ، وجعل الشملة قدرا لسراته دون رجليه وعنقه ، فدل على بياضهن .

والنوع الثاني : على ضربين :

أحدهما : ما يوجد في الطباع من تشبيه الجاهل بالحمار ، والحسن بالقمر ، والشجاع بالأسد وما شابه ذلك ؛ لأن الناس كلهم فيه سواء ، وهو متأصل في طباعهم .

والثاني : ما كان مخترعاً ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخراً من أول ، كتشبيه الخد بالورد ، والقد بالغصن ، والعين بعين المها ، والعنق

(١) العمدة ٩٨/٢ - ١٠٠ .

بعنق الظبي وهذا ليس من باب السرقة إلا إذا ولد فيه الشاعر زيادة تستوجب انفراده به .

وما ذكره ابن رشيق هو ترديد لكلام القاضي الجرجاني[1] .

ويوضح ابن رشيق أن السرق إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر ، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ، ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع به الظنة عن أن يقال إنه أخذه من غيره .

ويصف الشاعر السارق[2] بالبلادة والعجز ، إذا اتكل على السرقة ، كما يصفه بالجهل إذا ترك كل معنى سبق إليه ، والمختار عنده هو أوسط الحالات .

ويكون المتبع أولى بالمعنى من مبتدعه[3] ، وإذا تناول المعنى فأجاده ، بأن يختصره إذا كان طويلاً ، أو يبسطه إن كان كزاً ، أو يبينّه إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافاً ، وكذلك إذا قلبه ، أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر .

أما إن ساوى المتبع المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ، فإن قصّر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه وسقوط همته ، وضعف قدرته .

ثم يتحدث عن أنواع السرقات من اجتلاب وانتحال واغارة وغصْب واهتدام وعكس مما سبقه اليه الحاتمي .

ويعتبر من أجل السرقات نظم النثر وحل الشعر ، وليس على سارقه جناح عند الحذاق من النقاد .

٤

وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) يفرد فصلاً عن الاتفاق في الأخذ والسرقة في كتابه أسرار البلاغة ويستهل بقوله :

---

(١) الوساطة ١٨٥ .

(٢) العمدة ٢٨١/٢ .

(٣) العمدة ٢٩٠/٢ .

أعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك في أن يكون :

١ – الاتفاق في الغرض على العموم .
٢ – الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض .

والاشتراك في الغرض على العموم بأن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء – والاشتراك في وجه الدلالة على الغرض ، بأن يذكر ما يستدل به على اثبات الشجاعة والسخاء مثلاً .

أما بالتشبيه كأن يشبه الممدوح بالأسد والبحر في الشجاعة والسخاء .

وأما بذكر هيئات لا تكون إلا وصفاً للممدوح دون غيره من الناس كوصف الرجل في حال الحرب بالابتسام ، وسكون الجوارح ، وقلة الفكر ، أو وصفه بالتهلل عند ورود العفاة والارتياح لرؤية المحتاجين .

والأتفاق في عموم الغرض لا يكون الاشتراك فيه داخلاً في الأخذ والسرقة ، والاتفاق في وجه الدلالة على الغرض إذا اشترك الناس في معرفته كان حكمه حكم الاتفاق في عموم الغرض ولا يدخل في باب السرقات كالتشبيه بالأسد في الشجاعة وبالبحر في السخاء ؛ لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولا يحتاج في العلم به إلى روية واستنباط أو تدبر وتأمل ، وأنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس .

أما إذا كان الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض لا ينتهي إليه المتكلم إلا بعد النظر والتدبر ، ولا يناله إلا بالطلب والاجتهاد وتجشم الصعود إليه ، إذا كان هذا شأنه ، فهز الذي يجوز فيه الاختصاص والسبق والتقدم ، وأن يقضي بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما زاد على الأول أو نقص عنه ، أو أرتقى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته .

ثم يعود عبد القاهر إلى التفصيل في النوع الأول وهو الاتفاق في عموم الغرض فيقول :

---

(١) الأسرار ٣٨٢ ٣٩٦ عبد القاهر الجرجاني ط الاستقامة .

وأعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامي والذي قلت إن التفاضل لا يدخله ، إنما يكون كذلك إذا كان صريحاً لم تلحقه صنعة أو لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والرمز بحيث تتغير طريقته وتستأنف صورته ، صار من قبيل الخاص الذي يتوصل إليه بالتدبر والتأمل ، كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » وإن السحاب يستحيي إذا نظر إلى نداك » .

كقول عبيد الراعي :

سلبن ظباء ذي نفر طلاها .. ونجل الأعين البقر الصوارا

وكقول أبي نواس :

إن السحاب لتستحيي إذا نظرت .. إلى نداك فقاسته بما فيها

فهذا كله في أصله ومغزاه ، وحقيقة معناه ، تشبيه ، ولكنه كنى لك عنه وسلك مذهب التخييل فيه ، فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن ، منيع الجانب ، وإذا حققت النظر ، وجدته ليس من قبيل الظاهر المعروف بل هو من الخصوصيات التي تنفي الاشتراك :

فقد أوهمك في بيت الراعي أن ثمة سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء في الحسن وفتور النظر .

وكذلك يوهمك أبو نواس بقوله : « ان السحاب لتستحيي » أن السحاب حي يعرف ويعقل ، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزي ويخجل ، فالاحتفال والصنعة انما هي في التصوير الذي يروق السامعين ويروعهم ويدخل النفس في حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، هذا التصوير الذي يكسب الدني رفعة ، والغامض القدر نباهة . ويؤكد ذلك بضرب الأمثلة من الشعر الذي يرفع الدنّى ، ويجعل من الشيء المستنكر حلاوة وسحراً .

فالقبيلة التي كانت تعير بأنف الناقة – صار هذا اللقب موضع فخار لهم حين قال فيهم الحطيئة :

قـومٌ هـم الأنـفُ والأذْنـاب غيرُهم .. ومن يسوّي بأنـفِ الناقـةِ الذنَبـا

وكذلك ما يعرف من حالة الصلب الذي يملأ النفوس انكاراً ، وتنزعج له القلوب استفظاعاً ، ويغري الألسنة بالإستعاذة من سوء القضاء ، حين تتقلب هذه الحالة على يد الشاعر إلى خلافها ، وما يصنع فيها من السحر بتأويلها فيقول .

علـوٌّ في الحيـاة وفـي الممـات .. بحقّ أنت إحـدى المعجـزات
كـأن الناسَ حـولك حـين قـامـوا .. وفـودٌ نداكَ أيـام الصِـلات
كـأنـك قـائـمٌ فيهـم خطيبـاً .. وكـلّهـم قيـامٌ للصـلاة
مـددت يـديـك نحـوهم احتفاءً .. كمـدّهـا إليهـم بـالهبـات
لعظمـك في النفـوس تبيـت تـرعـى .. بحـراس وحفّـاظ ثقـات
وتشعـل عنـدك النيـران ليـلاً .. كـذلـك كنـت أيـام الحيـاة

٥

ونرى محمد بن علي الجرجاني الذي صنف كتابه « الأشارات والتنبيهات في علم البلاغة » سنة ٧٢٩ هـ يتناول في خاتمة الكتاب السرقات الشعرية ويقسمها إلى ثلاثة أقسام[١] :

الانتحال ، والإغارة ، والإلمام .

الأول : الانتحال ويسمى فسخاً ، وهو : سرقة المعنى بألفاظه من غير تغيير ، أو بعض تغيير ، وهو مذموم جواً .

فما كان بدون تغيير ، هو البيت الذي وجه في قصيدتي زهير وأوس :

إذا أنت لـم تُعرض عن الجهـل والخَنا .. أصبتَ حليمـاً ، أو أصابك جاهلُ

وما كان ببعض تغيير كقول الأبيرد اليربوعيّ :

فتـى يشتـري حسن الثنـاء بمـالـه .. إذا السنـةُ الشهبـاءُ أعْوزها القطْرْ

(١) الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ٣٠٦ ط نهضة مصر .

وفي شعر أبي نواس :

فتـى يشتـري حسْنَ الثنـــاء بمـالــه .. ويعلـمُ أنّ الـوائـراتِ تــدورُ

الثاني : الإغارة ويسمى : مسخا ، وهو أخذ المعنى بتغيير نظمه وهو محمود إن اختص بفضيلة كحسن السبك ، أو الاختصار ، أو الإيضاح ، أو زيادة معنى ، كقول بشار :

مـن راقـب النـاسَ لم يظفـرْ بحاجته .. وفـاز بالطّيّبـات الفـاتِكُ اللَّهِـجُ

وقول سلم الخاسر :

مـن راقـب النـاس مـات همّـــاً .. وفـــاز بـالـلّـــذة الجَسورُ

فبيت سلم أجود سبكا وأخصر .

وإن كان أدون في البلاغة فهو مردود ، كقول أبي الطيب :

أعــدى الـزمـــانَ سخـاؤه فَسَخَا به .. ولقـد يكـون بـه الزمانُ بخيـلاً

أخذه من أبي تمام :

هيهـات ، لا يـــأْتي الـزمـان بمثلــه .. إن الزمـانَ بمثْله لبخيـــــلُ

فأفسد أبو الطيب بيته بلفظتي : « قد ، ويكون » فإن « قد » في المضارع للتقليل ، فتفيد بالمفهوم على عدم بخل الزمان بمثله .

« ويكون » للزمان المستقبل ، فتفيد بالمفهوم على عدم بخله في الماضي .

الثالث : الإلمام ، ويسمى سلخا .

وهو أخذ المعنى من غير التعرض للفظ ، كقول البحتري :

تصـدّ حيـــاءً أن تـــراك بـأوجــهٍ .. أتـى الذنبَ عاصيها فَلِيمَ مُطيعُها

وقول أبي الطيب :

وجُرْمٍ جَرَّه سفهاءُ قوم .. وَحلَّ بغير جارِمِه العذابُ

وهو أجود من الأول بحسن السبك كأنه اقتبسه من قوله تعالى :
(أتهلكنا بما فَعل السُّفَهاءُ مِنّا) الأعراف ١٥٥ .

وبعد أن يفرغ من ذكر السرقات الشعرية ، يشرع في ذكر ما يشبه السرقة ، لخفاء المعنى[1] ويقسمه إلى عدة أقسام :

الأول : التشابه بين المعنيين ، كقول الطرماح :

لقد زادني حباً لنفسي أنني .. بغيضٌ إلى كل امرىء غيرِ طائلِ

وقول أبي الطيب .

وإذا أتتك مذمّتي من ناقصٍ .. فهي الشهادةُ لي بأنيَ كاملُ

والثاني : النقل أي نقل المعنى من شيء إلى آخر ، كقول البحتري :

سُلبوا وأشرقت الدماءُ عليهمُ .. محمّرةً ، فكأنهم لم يُسلَبوا

وقول أبي الطيب :

يَبس النجيعُ عليه وهْو مجردٌ .. عن غِمده ، فكأنما هو مُغْمَدُ

فإنه نقل المعنى من الإنسان إلى السيف .

الثالث : أن يكون المعنى الثاني أكثر مبالغة من الأول ، كقول جرير .

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ .. وجدتَ الناس كلَّهمْ غِضاباَ

وقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر .. أن تجمع العالم في واحدِ

وهذا أكثر مبالغة من بيت جرير .

---

(١) الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ٣١٢ .

الرابع : قلب المعنى إلى نقيضه ، كقول أبي الشيص :

أجـو الملامـة في هـواكِ لـذيـذةً .. حبّـاً لـذكركِ ، فليلُمني اللُّوَّمُ

فقلب أبو الطيب هذا المعنى إلى نقيضه فقال :

أأحبّـهُ وأحـبُّ فيـه مـلامـةً ؟ .. إن الملامةَ فيـه مـن أعـدائـهِ

الخامس : التحسين ، وهو أن يأخذ بعض المعنى ويضيف إليه ما يحسنه كقول الأفوه الأودي :

وتـرى الطيـرَ عـلى آثـارنـا .. رأيَ عيـنٍ ثقـةً أنْ ستُمـارْ

وقول أبي تمام :

وقـد ظُلّلتْ عِقبانُ أعـلامـه ضحىً .. بعِقبان طيـرٍ في الدماء نواهـلِ
أقـامتْ مـع الرايات حتـى كـأنها .. مـن الجيش ، الا أنها لم تُقاتـلِ

أخذ بعض معنى الأفوه ، وزاد عليه زيادات حسنة لا تخفى .

٦

والعصام صاحب الأطول (ت ٩٥١ هـ)[1] يسير على منوال الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) ولا يعدو أن يكون شارحاً لتلخيص المفتاح . وإن كان يتميز بنظراته الثاقبة ، وتحليلاته العميقة . وهو في معالجته للسرقات يتبع خطوات الخطيب القزويني سواء في ترتيبه أو في شواهده .

وصاحب الأطول يرى أن السرقة تجري في الشعر وفي غير الشعر أيضاً ، وأن السرقة والأخذ لفظان مترادفان بمعنى واحد .

والسرقة تكون ظاهرة وغير ظاهرة .

فالسرقة الظاهرة تكون بأخذ اللفظ ، أو أخذ المعنى ، أو كليهما معاً .

---

(١) الأطول ٢/٢٤٠ العصام – ط ١٢٨٤ هـ .

فإذا أخذ المعنى مع اللفظ كله من غير تغيير لنظمه فهي سرقة محضة ، وهو النسخ المذموم حتى وأن بدل الكلمات كلها أو بعضها بما يرادفها ، كأن يأتي شاعر إلى قول الحطيئة :

دع المكارِم لا ترحل لبغيتها .. واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

فقال : -

ذر المآثر لا تذهب لمطلبها .. واجبس فإنك أنت الآكل اللابس

أو بما يقابلها كأن يقول في بيت حسان :

بيضُ الوجوه كريمة أنسابُهم .. شمُّ الأنوف من الطراز الأوّل
سود الوجوه لئيمة احسابهم .. فطس الأنوف من الطراز الأول

وهذا القلب من النوع غير الظاهر .

* * *

أما إذا لجأ الشاعر إلى تغيير النظم .

فإن كان الثاني أبلغ من الأول لفضيلة فيه كاشتماله على محسن ذاتي فهو ممدوح كقول الشاعر :

خلقْنا لهم في كل عَين وحاجب .. بُسْمر القَنا والبِيض عيناً وحاجباً

وقول ابن نُباته :

خلَقْنا بأطراف القَنا في ظهورهم .. عيونًا لها وقْعُ السيوف حواجبُ

فبيت ابن نباتة أبلغ ؛ لاختصاصه بزيادة معنى : وهو الأشارة إلى انهزامهم ، حيث وقع الطعن والضرب على ظهورهم .

وإن كان الثاني دون الأول فهو مذموم وذلك إذا كان الأول يتمتع بفضيلة عرى منها الثاني .

وإن كان الثاني مثل الأول في الحسن ، فهو أبعد عن الذم .
وإن أخذ الثاني من الأول المعنى وحده .
فإن كان أبلغ من الأول فهو ممدوح .
وإن كان دونه فهو مذموم .
وإن كان مثله فهو أبعد عن الذم .

* * *

هذا فيما يتعلق بالسرقة الظاهرة .

أما السرقة غير الظاهرة ، فهي ما سبق أن ذكره الجرجاني في الاشارات وأطلق عليها « ما يشبه السرقة » وذكر لها ألواناً من : تشابه المعنيين أو نقل المعنى إلى معنى آخر ، أو أن يكون الثاني أشمل من الأول وأكثر مبالغة منه ، أو قلب المعنى إلى نقيضه ، أو أخذ بعض المعنى وإضافة ما يحسنه إليه ، وقد ذكرنا الأمثلة على كل ذلك في الحديث عن صاحب الأشارات والتنبيهات .

ويردد صاحب الأطول في نهاية الحديث عن السرقات عبارة الخطيب . « هذا كله إنما يكون إذا علم أن الثاني أخذ من الأول ، بأن يعلم أنه كان يحفظ قول الأول حين نظم ، أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه ، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر من غير قصد إلى الأخذ ، وتوارد الخواطر أكثر من أن يحصى في المعاني ، وأن كان توارد الشعر بعينه أو بأكثر ألفاظه قليلاً .

فإذا لم يعلم أنه كان يحفظ قول الأول ، أو لم يخبر هو نفسه بالأخذ .

قيل : قالوا فلان كذا ، وقد سبقه إليه فلان ، فقال : كذا ، ليغتنم الناقد بذلك فضيلة الصدق ، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ، ومن نسبه الغير إلى النقص .

* * *



المراجع

١ – أثر النحاة في البحث البلاغي – عبد القادر حسين – نهضة مصر
٢ – أخبار أبي تمام – الصولي – ١٩٣٧
٣ – الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة – القاضي الجرجاني – نهضة مصر
٤ – الخصائص – ابن جنى – دار الكتب
٥ – أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – الاستقامة
٦ – الأطول – العصام – ايران
٧ – اعجاز القرآن – الباقلاني – دار المعارف
٨ – امالي المرتضى – الشريف المرتضى – عيسى الحلبي
٩ – الإيضاح – الخطيب القزويني – بيروت
١٠ – بديع القرآن – ابن أبي الأصبع المصري – نهضة مصر
١١ – البرهان في علوم القرآن – الزركشي – عيسى الحلبي
١٢ – البلاغة تطور وتاريخ – شوقي ضيف – دار المعارف
١٣ – البيان والتبيين – الجاحظ – الخانجي
١٤ – تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبه – عيسى الحلبي
١٥ – تجديد الفكر العربي – زكي نجيب محمود – دار الشرق
١٦ – جواهر الألفاظ – قدامه بن جعفر – محيي الدين
١٧ – خزانة الأدب – ابن حجة الحموي – ط أولى
١٨ – دراسات في تاريخ الأدب – كراتشكوفسكي – ١٩٦٥
١٩ – شروح التلخيص – القزويني وآخرين – عيسى الحلبي
٢٠ – الشعر المصري بعد شوقي – محمد مندور – نهضة مصر
٢١ – الصناعتين – أبو هلال العسكري – عيسى الحلبي

٢٢ – الطراز – العلوي – المقتطف
٢٣ – أبو الطيب المتنبي وماله وما عليه – الثعالبي – ١٩١٥
٢٤ – عروس الأفراح – السبكي – عيسى الحلبي
٢٥ – عقود الجمان – السيوطي – مصطفى الحلبي
٢٦ – فن القول – أمين الخولي – دار الفكر العربي
٢٧ – في أصول الأدب – الزيات – الثالثة
٢٨ – كتاب البديع – ابن المعتز – دار العهد الجديد
٢٩ – الكشاف – الزمخشري – الاستقامة
٣٠ – المطول – التفتازاني – ١٣٣٠ هـ
٣١ – مقدمة بديع القرآن – حفني شرف – نهضة مصر
٣٢ – مقدمة شرح ديوان الحماسه – المرزوقي – تونس
٣٣ – الموازنة – الآمدي – دار المعارف
٣٤ – النقد والنقاد المعاصرون – محمد مندور – نهضة مصر
٣٥ – نقد الشعر – قدامة بن جعفر – الخانجي
٣٦ – النكت في اعجاز القرآن – الرماني – دار المعارف
٣٧ – نهاية الأرب – النويري – دار الكتب
٣٨ – الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي الجرجاني – عيسى الحلبي ، والقاهرة

المحتويات

الصفحة

الصفحة



مطابع الشروق

بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN





